طَرَائف حَولَ الصَّيْد

يطيب لى أن أبدأ حديث الطرائف هذا بما سمعته أُذناى ورأته عيناى مما أُلخص الحديث عنه فى صور ثلاث: إحداها فى جنوبى السودان، وثانيتها فى غابتين فى الجمهورية الهندية. وثالثتها فى فيلم خاص بصيد النمر شاهدناه فى الهند.

وقبل أن نأخذ فى الحديث عن هذه الصور الثلاث نذكر لك - رحمك الله - أن الحيوان المفترس يفتك بالإنسان حين يضطره الجوع إلى ذلك، وهو أمر لم تزل سنة الحياة ماضية به. ومنظر الذئب الجائع يخرج من الغابة لخطف طفل من الطريق أمر غير مستنكر ولا عجيب. وفى أيامنا هذه لم يزل النمر الآكل للبشر ماثلاً فى الهند، والأسد المفترس ماثلٌ فى إفريقيا وهما - كالعهد بهما - ماضيان على الطريق نفسها فى الفتك بالإنسان.

ولقد انقرضت شيئًا فشيئًا الحيوانات الكبيرة الثديية على الرغم من قوتها العظيمة ولم تستطع مقاومة القوى الطبيعية التى استطاع الإنسان أن يقهرها باستخدامه ذكاءه، وتنمية قدراته على مواجهة تلك الحيوانات التى كانت تنافسه فى السيطرة على الأرض. وبهذا أصبح تقدم الإنسان ساحقًا لا يعرف الهوادة فى تتبع تلك الحيوانات، فاختفت الزرافة والفيل من شمال وادى النيل فى بداية العصور التاريخية على الرغم من أن الأسلحة التى استعملها الذين عاشوا فى العصور الموغلة فى القدم لم تكن إلا أسلحة بدائية. ومع ترقى أسلحة الصيد إلى صوره أشد فتكًا وأيسر استعمالاً، امتهدت السبيل

للقضاء على الوحوش فى شمالى وادى النيل. ومما لا ينبغى تجاهله أن الملوك المغرمين بالصيد فى بلاد الشرق القديم، كانوا على أقوى الأسباب فى القضاء على الفيلة الآسيوية فى سهول أعالى الفرات منذ بضعة آلاف من السنين. وكلما ازدادت مقدرة الإنسان على إزعاج الحيوان المتوحش، آذن ذلك بانقراض نوعه، وليس يعلم أحد إلا الله تعالى ماذا تكون النتيجة بعد ذلك.

كذلك ذكر الأستاذ العلامة «جيمس برستد» فى كتابه «انتصار الحضارة» وباستصحاب هذا المعنى أستطيع أن أُقرر واثقًا أن هذا النظر كان من أقوى الأسباب التى حملت الحكومات المختلفة فى السودان الشقيق على وضع قيود للصيد، تبقى على كثير من الحيوانات الثديية فى غابات الجنوب.

فى جنوب السودان:

لأول ما وليت وزارة الأوقاف فى سبتمبر ١٩٥٣، قمت بأولى رحلاتى إلى السودان الشقيق، ومعى المرحوم الصاع صلاح سالم، وأخى الأستاذ جمال السنهورى، وفريق من الأشقاء السودانيين عسكريين ومدنيين. وقد قضيت فى جنوب السودان فترة زرت فيها أكثر محافظات الجنوب.

ولم يكن الأزهر الشريف قد تخلى عن صحبتى فى كل رحلة قمت بها فى أسيا وإفريقيا وأوربا، فكان حسن الدنكاوى الذى يعتزى إلى قبيلة كبيرة فى جنوب السودان والذى كان قد تلقى دروسه فى الأزهر يرافقنى فى هذه الرحلة، ويبذل لى من معرفته بأحوال بلاده وعاداتهم ما كان معوانًا لى على أن أبلغ من هذه الرحلة ما أريد. وليس يحتاج إلى تنبيه ما كانت تعج به الغابات فى الجنوب من مختلف الوحشيات، وما كان يتراءاه السائرون فى مختلف طرقها من أحوال الناس هناك فى عرى كامل سواء فيه الرجال والنساء، سائرين فى الطرقات أو قابعين فى الغابات، فإذا جاء الليل اجتمعوا

رجالاً ونساءً وفتياناً وفتيات يسمرون أو يرقصون فى العراء. ولقد كان مما يثير أشد العجب أن ترى من نساء أوربا وأمريكا كثيرات يعملن متطوعات مع البعثات التبشيرية هناك. فإذا الواحدة منهن تبدو لك فى الطريق وفى كتفها البندقية وفى يدها الكتاب، وهى منفردة أحياناً ومع بعض رفقائها أو رفيقاتها أحياناً، على الرغم مما يتهدد السائرين فى هذه المواحش من أخطار. وقد كانت الطرق ممهدة تسير فيها السيارات كأحسن ما يكون السير ليناً وسلاسة. وما أكثر ما رأينا ويرى السالكون فى هذه الطرق، سودانيات صغيرات يحملن سلالاً مملوءة بالبيض، ويعرضنها على السائرين وهن قائلات: «تبغى جنى الدجاج»؛ وهو على ترى تعبير عربى أصيل، يكشف فى أنفس الجنوبيين عن عروقهم المصرية التى تتمثل لهم فى آباء مجاهدين، ذهبوا إلى تلك الجهات فى الأيام الخوالى ثم تزوجوا من أهليها وأسلموا، ولا تزال أنسالهم يعيش هناك حتى يوم الناس هذا.

وعلى ذكر جمعيات التبشير التى أثرت تأثيرًا واضحًا فى جنوب السودان والتى أتت أُكلها على ما يبدو فى هذه الأيام، أُقرر هنا - لله ثم للتاريخ - أننى حين عدت من تلكم الرحلة رفعت إلى رئيس الدولة آنئذ تقريرًا تضمن النتيجة التى استخلصتها، ورأيت فى ضوء هديها أن أول واجب علينا فى تلك الظروف إيفاد بعثات إسلامية مزودة بما تحتاج إليه أهل الجنوب، لكى نستطيع أن نحقق من هذا الطريق خيرًا تتطلع إليه الشقيقتان مصر والسودان. وذكرت أن فى وزارة الأوقاف وقفًا كبيرًا على الجيش التركى، يمكن تحويله إلى الإسهام بأوفى نصيب فى هذا المجال من أجل هذه الغاية الشريفة، وليس هناك ما يمنع تحويل غرض هذ الوقف لا من ناحية الواقع ولا من ناحية الشريعة، وذلك أن الجيش التركى لم يعد جيشًا إسلاميًا يستحق هذا الوقف فى الحدود التى أرادها الواقف، ثم إن الشريعة لا تمنع

تحقيق الغرض الشريف الذى تحراه الواقف بتحويل وقفه من جهة برّ أرادها إلى جهة بر أولى منها. ولئن كنت لم أبلغ من ذلك ما أُريد لأسباب فوق طاقتى، لقد كان ذلك لأمر لا يعلمه إلا علام الغيوب.

الأسد شرطى مرور:

لست أنسى فى تلكم الرحلة ليلة بدأنا فيها السير بعد منتصف الليل فى تلكم الغابات، وبينما نحن نمضى على طريق من الطرق الضيقة المشقوقة وسط الأشجار، إذا صوت هائل يخرج من جوف الغابة يكاد يصم الآذان، ألقى فى روعنا جميعًا خوفًا ملك علينا مشاعرنا واستبدَّ بحواسنا. فوقفت السيارة، وأخذ السائق يحرّك مصابيحها فى سائر الجهات لأنه يعرف أن الوحشيات تخشى ضوء المصابيح. وانطلق أحد المرافقين يقص قصة شهدها فيقول: لقد كانت تمرّ فى مثل هذا الوقت على إحدى الطرق فى هذه الغابات سيارات، وفيم كانت رحلتها تمضى إلى غايتها آمنة، وقف فجأة سائق إحدى السيارات ثم لفت القوم الذين معه إلى منظر رهيب، لا قِبل للسيارات معه بالحركة، ونظر القوم إلى أمام فإذا جثة هائلة لأسد لا يعنيه من أمر الناس شىء، خرج من الغابة ثم تمدَّد وسط الطريق ووجهه إلى الغابة وجنبه الأيمن إلى مقدم السيارة فذهب الخوف بالركب كل مذهب وأزعج فى نفوسهم الأمن والسكينة، لأنهم لم يكونوا قد ألِفوا هذا المنظر من قبل، ولا هم كانوا قد توقعوه فى هذه الرحلة.

ولكن سائق السيارة كان أثبت جنانًا بما كان معه من طول التجربة فى مثل هذا الموقف، فلم يظهر عليه ما يشير إلى أنه خائف أو منزعج. فراح يوجه مصابيح السيارة حول الأسد وهو رابض فى مكانه لا يعير هذه المصابيح اهتمامًا، على شدتها وسرعة حركتها. وأخيرًا شاءت له كبرياؤه أن

يحول رأسه ناحية السيارة فى اللحظة التى صادفت فيها عيناه أضواء المصباح، فإذا فى كلتا عينيه الشمس فى رائعة النهار، تمام استدارة وقوة إشعاع. ثم تحرَّك فى كبرياء بادية وتثاقل شديد وزهو لا يبالى شيئًا، متجهًا إلى الغابة حتى إذا جاوز جانب الطريق وقف وكأنه شرطى المرور يأذن للمار أن يسير. واقتنص السائق الفرصة التى سنحت، فاندفع بأقصى سرعة وأشد ضوضاء بسيارته حتى تجاوزه. ثم نظر ركاب السيارة بعد ذلك إلى وراء فرأوا ملك الغابة وسيد الوحوش يعود إلى ما كان عليه من قبل اخذًا الطريق مرة أُخرى على المجتازين.

لقد كنت وأنا أستمع للزميل الكريم - ولعله الأستاذ محمد أمين المحامى - أتمثَّل أبيات المتنبى فى أسد نهر الأردن، وأتصور التقاء عينى الأسد بمصباح السيارة فلم أكن أفهم وصف المتنبى فى هذا البيت إلا حين رأيت مصباح سيارتنا فى عينى أسد الجنوب، فذلك حيث يقول أبو الطيب رحمه الله:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادَّخرت الصارم المصقولا
وقعت على الأردن منه بليَّة ... نضدت بها هام الرجال تلولا
وردٌ إذا وَرَد البحيرة شاربًا ... ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس ... فى غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه إلا ظننتا ... تحت الدجى نار الفريق حلولا
فى وحدة الرهبان إلا أنه ... لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقًا من تيهه ... فكأنه آمٍ يجسُّ عليلا
ويرد عفرته إلى يافوخه ... حتى تصير لرأسه إكليلا

على أنه إذا كان أسد الجنوب قد أخلى الطريق للركب يمضى بسلام، فإن أسد الأردن كان شرسًا فاتكًا شديد الإضرار بخلق الله. على ما صوره

أبو الطيب فى قصيدته التى انطوت على قصة خلاصتها: أن قائد جيش شجاعًا يدعى «بدر بن عمار» كان قد أهاج أسدًا عن بقرة افترسها، فإذا الأسد يثب على كفل فرسه فيعجل ابن عمار عن سل سيفه فيضربه بسوطه، ثم يدور الجيش بالأسد فيقتله. فيقول فى هذا المعنى أبو الطيب قصيدته العصماء التى روينا منها هذه الأبيات.

وصاة صياد:

روى لى هذه الوصاة مهندس مفضال لا يجهل ولا يتخيَّل، وقد عاش فى جنوب السودان حينًا من الدهر مشرفًا على النيل. ولولا الثقه به محافظًا ثم وزيرًا، لا ستشعرت حرجًا شديدًا فى تدوينها للناس فى هذا الكتاب:

قال المهندس المفضال: أنبأنى صائد متجول فى الغابات جنوب السودان أن الأسد وزوجته قلما يفترقان، فهما معًا، سائرين فى الغابة أو رابضين فى العرين. فإذا رأى الصائد هذين الزوجين فى غابة صيد فليبدأ بقتل الأسدة فإن الأسد إذا راها صريعة لم يرد على أن يتلفت ذات اليمين وذات الشمال، ثم يمضى لطيته لا يلوى على شىء. ولكن الصائد إذا بدأ بقتل الأسد، فإن الأسدة لا تتركه حتى يقتلها أو تقتله.

وأما الصورة الثانية فقد كانت فى عام ١٩٦٥ حين استجبنا دعوة كريمة من حكومة الهند الصديقة للمشاركة فى الاحتفال بتنصيب سيدنا محمد برهان الدين سلطانًا على طائفة البهرة.

ولما انتهت الأحفال، هيأت لنا حكومة الهند برنامجًا لزيارة مختلف المراكز الصناعية والزراعية. وكان فى ضمن هذا البرنامج رحلة فى الغابات القريبة من «بومباى»، وأُخرى فى الغابات البعيدة عنها. وكانت قد جرت عادة

القوم هناك على سنّة الرحلات هذه فكانوا يخرجون إلى الغابات للصيد والاستجمام فيصطادون الظباء والأيائل، وأحيانًا قليلة يصطادون النمر الذى يطلقون عليه اسم الأسد.

ولقد أذكر أننا التمسنا النمر أو الأسد ليلة كاملة ثم يومًا كاملًا فى موكب من السيارات مع أبناء السلطان وإخوته ثم نعود من كل تلك الرحلات بأسوأ مما يرجع به العائد بخفى حنين، لأن العائد بخفى حنين عائد بشىء كيفما كان هذا الشىء، فأما عودتنا نحن فقد كانت بتعب شديد وسهر طويل، وصبر على مشاق بالغة لا يدركها الوصف ولا يبلغها البيان، وذلك أن للقوم هناك طريقة رائعة فى صيد النمر أو ما يسمونه الأسد على الفرق بين الحيوانين شكلًا وموضوعًا، فهم يعمدون إلى أعلى شجرة فى الغابة فيمهدون فى رأسها بين الأغصان مجلسًا مستورًا، لا يرى ما بداخله من قريب أو بعيد، على أن يكون المجلس ضيقًا لا يتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص، يرتقون إلى ذلك المجلس بسلم بين الصعوبة شديد التعقيد. وقد كنت أحد هؤلاء الثلاثة ليلتين متواليتين دون طائل، على ما فى البقاء فى هذا المكان من مشقة لا يتصورها إلا من يتمثل أمورًا: لا يسعل أو يعطس أو يتكلم أو يدخن سيجارًا أو يتحرك فى المكان حركة مهما تكن ضعيفة. فإن النمر دقيق الحس يشم ويرى ويسمع، فلا يخفى عليه من حركات الصائد شىء. وهى صورة بغير سك لا يستطيعها إلا القليل من خلق الله. ولعلى لا أزال إلى اليوم كلما تذكرت فى مجلسى فى ذلك المكان تذكرت به مالا قبل لإنسان بالصبر عليه لولا ما وضع الله فى فطرتنا من غريزة حب الاستطلاع.

وبيان ذلك أن القوم لكى يصيدوا النمر يجلسون هذا المجلس الذى وصفت، وعلى مقربة منه يربطون عجلًا فيجىء النمر فى خطو خفيف وحذر شديد لينال من فريسته ما يريد. فينتهز الصائد الفرصة فيطلق عليه رصاصة

أو اثنتين أو ثلاثًا متتابعات فيصرعه، ثم يحملونه إلى حيث يسلخون جلده الذى يعتبر من أغلى أنواع الجلود وأعظمها قيمة. وكثيرًا ما يكون النمر أشد مكرًا من الإنسان الذى يتربص به، فيجيء إلى فريسته بعد أن يمل المتربصون وينصرفوا، فيأكل منها ما شاء له النهم ثم ينصرف فى سلام. وقد ملّ المتربصون به طول الصمت وقسوة الانتظار وخشونة المكان.

وأما الصورة الثالثة فقد دعتنا إليها دار عرض للسينما عرضت علينا فيلماً خاصًا بصيد النمر. وفيه أن نمرًا جائعًا فى غابة تتبع غلامًا كان يركب النورجَ ويدرس القمح، وفيما هو يدور فى حلقته المفرغة، خرج النمر من الغابة خفيف الخطو خفَّة القط حين يتهيأ لخطف قطعة من اللحم، ثم قبض على الصبى من الخلف واحتمله إلى داخل الغابة وافترسه. فاجتمع أهل الغلام يتقبلون العزاء فيه فى غيظ كظيم. وفى مشهد تال من مشاهد الفيلم رأينا القوم وقد استداروا بالمنطقة التى هو فيها، وكلما قصد إلى مكان يهرب منه رأى الناس يهجهجون به فيعود، وهو شديد الحذر من الناس. فكلما لاح له جماعة منهم تراجع.

وفى المشهد الأخير بدا صائد ماهر فصوبَّ إلى النمر بندقيته وأطلق عليه رصاصات ألقته صريعًا على الأرض. وبهذا فرح أهل الصبى وجيرانهم لأنهم أدركوا ثأرهم، وشفوا غيظ صدورهم.

بين أعرابى وكلب:

كان فى مدينة البصرة من مدن العراق اعرابى خرف يدعى «عروة ابن مرثد» ويكنى أبا الأغر. وكان قد نزل فى بنى أُخت له من قريش، ينزلون فى بعض سكك المدينة. وجاء رمضان وخرج الرجال إلى ضياعهم وأعمالهم، وبقى النساء يصلين فى المسجد، فلم يبق فى الدار إلا كلب يعس

طالبًا شيئًا يطعمه، فهو يتشمم هنا وهناك لعله يقع على ما يرد جوعته. والقوم فى رمضان رجلًا ونساء ممسكون عن شراب وطعام. ورأى الكلب بيتًا فابتدره بالدخول إليه، وانصفق الباب عليه فى حركة عنيفة. وسمع بعض الإماء الحركة. فظنوا أن لصًا دخل الدار، فذهبت إحداهن إلى أبى الأغر تستغيث به، وليس فى الحى رجل غيره. فلما أنبأته ذلك قال: وماذا يبتغى اللص منا؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت، والدار[١] خالية والباب منصفق. ثم راح الأعرابى الخرف يخاطب الكلب يحسبه لصًا: هيه يا ملأمان[٢]، أما والله إنك بى لعارف، وإنى بك أيضًا لعارف، فهل أنت إلا من لصوص بنى مازن؟ شربت حامضًا خبيثًا حتى إذا دارت الأقداح فى رأسك منتك نفسك الأمانى فقلت: إلى دور بنى عمرو، فإن الرجال خلوف والنساء يصلين فى مسجدهن، فليس للسرقة وقت أنسب من هذا الوقت. سوأة والله، ما يفعل هذا الأحرار. لبئس والله ما منتك نفسك، فاخرج، وإلا دخلت عليك فصرمتك منى العقوبة، لأيم الله، لتخرجن أو لأهتفن عليك هتفة مشئومة يلتقى فيها الحيان فيصير بذلك أمرك إلى تباب. ولئن فعلت، لتكونن أشأم مولود.

فلما رأى الكلب لا يجيبه، جنح إلى اللين فقال: اخرج يابنى وأنت مستور إنى والله ما أراك تعرفنى. ولو عرفتنى، لقد قنعت بقولى، واطمأننت إلى نصحى. أنا عروة بن مرثد أبو الأغر المرثدى خال القوم، وفى منزلة العزة والكرامة بينهم، لا يعصوننى فى أمر. وأنا لك بالذمة كفيل خفير، لا يمسّك ضر ولا يلحق بك أذى. فاخرج وأنت فى ذمتى. وعندى وعاءان من تمر

---

(١) البيت من الدار: موضع البيات خاصة بخلاف الدار فإنها أعم وأشمل.

(٢) لئيم.

أهداهما إليّ ابن أُختي البار الوصول، فخذ أحدهما وانتبذه حلالاً من الله تعالى ورسوله ﷺ.

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق، وإذا سكت وثب يريغ[١] الخروج، فتهانف[٢] الأعرابي ثم قال: يا آلآم الناس وأوضعهم، إذا قلت لك البيضاء والسوداء تطرق وتسكت، فإذا سكتّ عنك، تريغ المخرج.. والله لتخرجن - بالعفو عنك - أو لأدخلن البيت عليك بالعقوبة.

فلما طال وقوف الأعرابي، جاءت جارية من إماء الحي فقالت: أعرابي مجنون، والله ما أرى في البيت شيئًا. ودفعت الباب، فخرج الكلب يشتد، وحاد عنه أبو الأغر مستلقيًا على قفاه من الخوف وهو يقول: الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفاني منك حربًا.

خير من جليس السوء:

لا يجهل أحد من أهل المعرفة بكرام الرجال «مالك بن دينار» في زهادته وتقواه، وحرصه على تجنب مساخط الله وتحصيل مراضيه. وقد كان معه كلبه يجلس إليه ويأنس به كلما فرغ من صلاة طويلة خاشعة يناجي فيها ربه، أوفرغ من تلاوة متدبرة يناجيه فيها ربه[٣]. وكان الرجل -رضي الله عنه-

---

(١) يريد.

(٢) تهانف تضاحك في سخرية واستهزاء. ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة يصف امرأة:

ولقد قالت لأتراب لها ذات يوم وتعرت تتبرد
أكما ينعتني تبصرنني عمركن الله أم لا يقتصد
فتهانفن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود

(٣) كان أسلافنا يفرقون بين عبادة الله بإقامة الصلاة وبين عبادته بتلاوة القرآن، فيقول زاهدهم «كنت إذا أردت أن أناجي ربي دخلت في الصلاة، فإذا أحببت أن يناجيني ربي أخذت في قراءة القرآن».

مِلْءَ العيون مهابة والصدور جلالة، فلم يكن واحد يستطيع أن يجترئ فيسأله عن شأن من شئونه الخاصة إلا أن يكون أخًا له فى الله، أو معينًا له على حق، أو مريدًا من مريديه ينشد عنده المعرفة. وكان من إخوانه جعفر بن سليمان الذى جمعته وإياه خلّة الدين والزهادة، فسأله: ما تصنع بهذا الكلب أبا يحيى؟ قال أبو يحيى مالك بن دينار: آنس به فى الخلوة والجلوة، وهو فى شرّ أحواله خير من جليس السوء.

وليس ينبغى لك رحمك الله أن ترتاب فى صحة هذا النظر وصدق هذه الكلمات، فما أكثر صرعى جلساء السوء، يمدون للطيبين من جلسائهم فى أسباب الحديث، ويستثيرونهم مما يعلمون ألّا طاقة لهم بالسكوت عنه، مدحًا أو قدحًا، وتعديلًا أو تجريحًا، إرادة إحقاق حق وإبطال باطل، فإذا أهل السوء هؤلاء ينطلقون ينمّون أو يختلقون، حتى إذا فرغوا مما أرادوا وبلغوا ما أحبوا، مضوا إلى دورهم أو قصورهم طيبة بذلك أنفسهم قريرة به أعينهم، وقد أزعجوا نفوسًا آمنة، وأخربوا بيوتًا عامرة. ومن هنا اثر عقلاء الناس من أهل الدنيا وأبرارهم من أهل الدين أن ينأوا عن الناس، فيعتزلوهم أو يخالطوهم على حذر شديد، حتى لقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه فيما يذكر الرواة:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة ... وليتنا لا نرى مما نرى أحدا

إن الكلام لتهدى فى مرابضها ... والناس ليس يهاد[1] شرهم أبدا

---

(١) أصلها: هادئ.

سبيل إلى رضوان الله:

وإذا كان مالك بن دينار رضى الله عنه قد آثر صحبة الكلب على جليس السوء، فمضى يأنس به ويكرم صحبته، فإن شيخًا آخر جليل القدر من جلة شيوخ الحديث كان يرى فى إكرام الكلب - مشتغلاً بـه عن لقاء كـرام الأضياف - سبيلاً إلى مرضاة الله والظفر بحسن ثواب الآخرة. ففى مناقب الإمام أحمد بن حنبل أنه بلغه نبأ شيخ من أهل الحديث على مسافة بعيدة الشقة، وعنده من حديث رسول الله ﷺ أحاديث ثلاثية السند، وبين راويها وبين رسول الله ثلاثة رواة فقط وهذا النوع من الحديث يحرص العلماء على الظفر به بالغة ما بلغت المشقات فى الحصول عليـه. فرحـل الإمام التقى الورع أحمد بن حنبل إلى ذلك المحدَّث الجليل ليأخذ عنه هذه الأحاديث، راكبًا إليه خطر الطريق وشدة المشقة. فلما بلغه رآه يطعم كلبًا وقد أقبل عليه فى رفق بالغ وعناية شديدة، وسلم فرد الشيخ عليه السلام، ثم استمر مشتغلاً بإطعام الكلب غير ملتفت إلى ضيفه الكريم، فوجد فى نفـسه ابن حنبل ما يجد مثله فى مثل هذا التصرف. ولكنه ظل واقفًا فى مكانه، حتى إذا فرغ الشيخ من طعمة الكلب التفت إلى الإمام يقول له: كأنك وجدت فى نفـسك إذ أقبلت على الكلب ولم أقبل عليك. قال الإمام: نعم. قال الشيخ: حدثنى أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، أن النبى ﷺ قال: «من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله تعالى منه رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة». وقد قصدنى هذا الكلب يبتغى طعامًا عندى، فخفت أن أقطع رجاءه، فيقطع الله رجائى فى يوم القيامة. قال أحمد: هذا الحديث يكفينى. ورجع من حيث أتى وقد قطع عشرات الأميال فى طرق مخـوفة ومسالك وعرة، قانعًا بهذا الحديث النبوى الشريف.

سبيل إلى عز الدنيا:

ويجرى فى طريق هذا المعنى الكريم حديث عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وكان أسهر الأجواد فى الإسلام، كما كان أشهرهم فى الجاهلية كعب بن مامة وحاتمًا الطائى. فقد خَرَج عبد الله بن جعفر ذات يوم إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم فى الطريق إليه ليستريح، وكان فى النخيل غلام أسود جهده العمل وكدَّه الجوع، فأتاه إبان بعدائه ثلاثة أقراص من الخبز، وهيأ هو يشرع فى تناول غدائه قصده كلب فرمى إليه بقرص فأكله ثم عاد فرمى إليه بالثانى فأكله ثم لم يزل الكلب يذهب ويجىء حتى رمى إليه الغلام بالثالث فأكله. كل ذلك وعبد الله بن جعفر ينظر ويتعجب. ثم عاد بالغلام فقال له: كم قوتك كل يوم ؟ قال: هذه الأقراص الثلاثة. قال: فلم آثرت الكلب بها على نفسك؟ قال: هذه أرض لئيمة بأرض كلاب وقد جاءنى هذا الكلب من مسافة بعيدة جائعًا فكرهت ردَّه. قال عبد الله: فماذا أنت صانع اليوم؟ قال: أطوى يومى هذا.

فالتفت عبد الله بن جعفر لأصحابه الذين يرافقونه إلى ضيعته وهو يقول لهم: تلومونى على سخائى، وهذا الغلام أسخى منى، وقد رأيتم بأعينكم وسمعتم بآذانكم ما يؤكد هذا الذى أقول.

ثم إنه - رحمه الله - سترى هذا الغلام فأعتقه، ثم اشترى تلك الضيعة فوهبها له.

وهكذا يتراءى إكرام الكلب بين خير الآجلة للمجد الجليل جنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين، وبين خير العاجلة للغلام الأسود الرقيق فى حرية عزيزة وتقدير سريف وغنى عريض، قد يجمع الله تعالى به له بين شرف الدنيا والآخرة جميعًا، والله ذو الفضل العظيم.

من عجيب الإلهام:

إن الله رب العالمين، فهو لا يضيع من خلقه مخلوقًا حيوانًا أو إنسانًا أو طيرًا أو حشرة تدب أو تدرج على وجه الأرض، فأعطى كلًا من مخلوقاته إلهامًا تقوم به حياته وتنتظم عليه شئونه. ومن آيات ذلك حديث يرويه الرواة عن الخليفة المعتصم العباسى، وقد أوغل ذات يوم فى الصيد وحده فبصر بقانص يصيد الظباء، فاستدناه فقال له: حدثنى أعجب ما رأيت فى صيدك. فقال: خربقت المشارع التى تردها الظباء لتشرب. فلما همت بالورود شمت الخربق، فصدرت عطاشًا، ثم عادت من غد، فانصرفت أيضًا عطاشًا، ثم عادت فى اليوم الثالث بأجمعها وقد جهدها العطش، فلما شمت الخربق انصرفت عن الماء، ورفعت رءوسها إلى السماء، فأتاها الغيث كأفواه القرب، فما انصرفت حتى رويت وخاضت فى الماء.

ظبى أدرك ثأره:

قال ياقوت فى معجم الأدباء: حدَّث موسى بن هارون قال: كنت بحضرة الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر، فاستأذن عليه الزبير بن بكار، فلما دخل عليه أكرمه وعظمه، وقال له: إن باعدت بيننا الأنساب، فقد قربت بيننا الآداب وإن أمير المؤمنين أمرنى أن أدعوك وأُقلدك القضاء. فقال له الزبير ابن بكار: أبعد ما بلغت هذه السن، ورويت بأن من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين أتولى القضاء! فقال له: فتلحق بأمير المؤمنين بسر من رأى. فقال له: أفعل. فأمر له بعشرة آلاف درهم، وعشر تخوت ثياب، وظهر يحمله ويحمل ثقله إلى «سر من رأى» فلما أراد الانصراف، قال له: إن رأيت يا أبا عبد الله أن تفيدنا شيئًا نرويه عنك ونذكرك به. قال: نعم، انصرفت من

عمرة المحرم، فبينما أنا بأثاية[1] العرج، إذ أنا بجماعة مجتمعة، فأقبلت إليهم، وإذا برجل كان يقتنص الظباء، وقد وقع ظبى فى حبالته فذبحه، فانتفض فى يده، فضرب بقرنه صدره، فنشب القرن فيه، فمات. وإذ بفتاة كأنها المهاة. فلما رأت زوجها ميتًا شهقت ثم قالت:

يا خشف، لو بطل، لكنه أجل ... على الأثاية ما أودى به البطل
يا خشف جمع أحشائى وأقلقها ... وذاك يا خشف لولا غيره جلل
أضحت فتاة بنى نهد علانية ... وبعلها فى أكف القوم محتمل
وكنت راغبة فيه أضن به ... فحال من دون ضن الرغبة الأجل

ثم شهقت فماتت. فما رأيت أعجب من الثلاثة: الظبى مذبوح، والرجل جريح والفتاة ميتة.

فلما خرج قال الأمير محمد بن عبد الله: أى شىء أفدنا من الشيخ؟ قالوا: الأمير أعلم. قال: قوله: «أضحت فتاة بنى نهد علانية» تعنى ظاهرة، وهذا حرف لم أسمعه فى كلام العرب قبل اليوم. أما أن الذى أخذناه من الفائدة فى قولها «أضحت فتاة بنى نهد علانية» تريد ظاهرة أكثر عندى مما أعطيناه من الحباء والصلة.

ما أشرف هذه الأخلاق!

حدَّث ثقة عن رجل من أهل همذان أن الثلج كثر ذات عام حتى لجأت إلى ضياعه قطعان من البقر الوحشى وأسراب من الحمر والظباء، فاعتبرها عائذة به، فأعاذها، امرًا غلمانه أن يقدموا لها القضيم والعلف إلى أن ينحسر الثلج. فإذ انحسر خلوا سبيلها وتولوا حمايتها حتى تصل إلى أبعد موضع

---

[1] موضع بينه وبين المدينة خمسة وعشرون فرسخًا - معجم البلدان

من العمارة، فلم يمس وحشية سوء من أذى أو جوع حتى رحلت سالمة كما وفدت لائذة.

ومما يدل على اعتزاز العربى بحماية الجار - إنسانًا كان أو حيوانًا - ما يروى عن مجير الجراد حارثة بن حنبل الطائى، فقد وقع الجراد فى أرضه، وبدا أول ما وقع بالوقوع حول خبائه، فخرج أهل الحى ليصيدوه، فركب الرجل فرسه وأشرع إليهم رمحه وهو يقول لهم: ما كنت لأمكنكم من جارى، ولم يسع القوم إلا أن انصرفوا، فأمن الجراد فى جوار ذلكم الرجل الشريف، وفى هذا يقول معاوية التغلبى مفتخرًا:

ومنا الكريم أبو حنبل ... أجار من الناس رجل الجراد
وزيد لنا ولنا حاتم ... غياث الورى فى السنين الشداد

وكما تضعف الوحشيات عن احتمال البرد، تضعف كذلك عن احتمال المطر الثقيل.

ورعا دام الغيث أيامًا فجرت به الأودية وتتابع السيل وثلجت الصحراء حتى عم ذلك معاقل الأروى، وكناس الظباء ومرابض المها ومفاحص القطا ومسالك الطير فى الهواء، فتلجأ هذه الوحشيات إلى العمارة حتى تؤخذ قبضًا، وتكون فى استسلامها وضعف من يقدر عليها، كالطير الذى يقول عنه على ابن الجهم:

وحتى رأين الطير فى جنباتها ... تكاد أكف الغانيات تصيدها

مخايل جبروت مبكر:

ومن أطرف الطرائف ما حدّث به الثقات عن أبى العباس السفاح، وكان شديد اللهج بالصيد ناشئًا ومكتهلًا. فقد خرج ذات يوم متنزهًا فى فصل

الربيع. وكان فى صحبته كثير من أهل بيته، وجماعة من خاصته، وعدة من مواليه. فبسط له هنالك ودعى بغدائه، وحضر مائدته عمومته وكبار قومه، وبينهم أبو جعفر المنصور، فبينما هم كذلك يأكلون ويشربون ويتضاحكون إذ طلع عليهم أعرابى، فوقف بإزائهم بعيدًا عنهم، ثم سلَّم بالإشارة عليهم، فأشار إليه أبو العباس السفاح أن يدنو، فدنا حتى قرب منه، فأمره أن يجلس فيصيب من طعامه، فجثا الرجل على ركبتيه بعد أن سلَّم فأكل أكل جائع منهوم مقرور.

فلما انتهى أقبل على أبى العباس يقول له: بأبى أنت وأمى يا حسن الوجه، ألا انتسبت إلىّ حتى أعرفك؟ فتبسم ثم قال: رجل من اليمن من عبد المدان. فقال: أنت والله شريف، ولكنى والله أشرف منك. قال أبو العباس: فهلا انتسبت إلىّ حتى أعرفك؟ قال: بيت قيس من بنى عامر. قال أبو العباس: شريف إلا أنى والله أشرف منك. قال الأعرابى: كلا ما بنو الحارث بأسرف من بنى عامر إلا أن تكون عارضتنى فى نسبك. قال: ما عارضتك ومن عبد المدان لأحد طرق. قال: فممن أنت إذن؟ قال: من بنى هاشم. قال: فأنت إذن من رهط رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: شريف والله ندى لا إله إلا هو، فما قرابة ما بينك وبين هذا الملك الذى يدعى أبا العباس؟ قال: قريبه. قال: بأبى أنت وأمى أهو لحميمى؟ قال: هو هو. قال الأعرابى: فإنى محدثك حديثًا عنه فاكتمه علىَّ قال: أفعل. قال: رأيته وهو غلام يقعد يرمى فى غرض بالحميمة فيجمع بين نبله فى مثل راحتى هذه، ثم ينصرف عن غرضه فيمر بالطائر فيصرعه بسهمه، ثم لا يلبث أن يذبحه بسيفه ويقطعه ويضرم له نارًا، أو يستعير نارًا قد أضرمها أهلها لغدائهم، فيرمى بصيده عليه، راميًا بطرفه إليها لئلا يغلبه أحد على ما فيها،

ثم يأكله، نتفًا بريشه مع شظية من لحمه حتى يأتى على ما فيه ما يشركه عشير ولا خليل. فصاح به المنصور: اسكت يا أعرابى فضَّ الله ناجذك، إنما تخاطب أمير المؤمنين. فقال أبو العباس: ما هذه المعاشرة يا عم؟ رجل تكلم على الأنس والانبساط وقد تحرم بنا وأكل طعامنا فأرعبته وأوهنت متنه وقطعت حديثه، تكلم يا رجل.

فلما سمع ماقال عمّ أمير المؤمنين قال: وكنت أرى فى هذا الفتى أمارات خير تدل على أنه سيملك ما بين لا بتيها[1]. قال: وما تلك؟ قال: لين الجانب والصفح عن الجاهل، والبذل للسائل، مع مركبه الكريم وموضعه من النبوة. فضحك أبو العباس حتى فحص الأرض برجليه من حسن ما تخلص الأعرابى مما وقع فيه. ثم وصله وكساه وحمله.

التسامح مع الشعراء:

وبقدر ما كان أبو العباس السفاح متجبرًا غليظ القلب، كان واسع الصدر حليماً مع المحتاجين. دخل عليه ذات مرة أبو دلامة الشاعر فأنشده. فقال له: سل يا أبا دلامه. فقال: كلب صيد. قال: ويلك، وماذا تصنع بكلب؟ قال: أمرتنى أن أسأل فسألت، والكلب حاجتى. قال: هو لك. قال: ودابة تكون للصيد. قال: ودابة لأبى دلامة. قال: وغلام يركبها ويتصيد عليها. قال: وغلام. قال: وجارية تُصلح لنا صيدنا وتعالج طعامنا. قال: وجارية قال أبو دلامة: كلب ودابة وغلام وجارية، هؤلاء عيال لابد لهم من دار. قال: ودار. قال: ولابد من غلة وضيعة لهؤلاء. قال: قد أقطعناك مائة

---

(١) سيكون ملكه شاملًا. وأصل الكلمة فى المدينه لأنها تقع بين حرتين هو فى حجارة سود، ثم حرب على أنواه الناس فى كل بلده ولو لم تكن بين حرتين - الأساس.

جريب عامرة ومائة جريب غامرة. قال: وما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: هى التى لا نبات فيها. قال أبو دلامة: فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسمائة جريب فى فيافى بنى أسد. قال فقد جعلنا لك المائتين عامرة، فهل بقى لك شىء؟ قال: أُقبّل يدك. قال: أما هذه فدعها. قال أبو دلامة: والله ما منعت عيالى شيئًا أهون عليهم فقدًا من هذه.

الحمى أضرعتنى لك:

يعرف أهل النظر أن الحرب ضربان: حرب تختلس فيها نفوس الأبطال، وأُخرى تختلس فيها أنفس الحيوان. ويعرفون أن من أدوات الحرب ما يصلح للصيد. وقد سأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ذات يوم عمرو بن معد يكرب الزبيدى عن السلاح، فقال يسأل أمير المؤمنين عما بدا له. قال: ما تقول فى الترس؟ قال: هو المجنّ الدائر، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول فى الرمح؟ قال: أحوك، وربما خانك فانقصف. قال: فالنبل؟ قال: منايا تخطئ وتصيب. قال: فما تقول فى الدرع؟ قال: مثقلة للراجل، متعبة للراكب، وإنها - مع ذلك - لحصن حصين. قال: فما تقول فى السيف؟ قال: هنالك، لا أُم لك يا أمير المؤمنين. فضربه عمر بالدرة وقال: بل لا أُم لك أنت. قال: الحمى أضرعتنى لك[1].

دعاء مستجاب:

أخرج الإمام البخارى وغيره أن أعرابية كانت تخدم نساء النبى ﷺ وكانت كثيرًا ما تتمثل بهذا الشعر:

---

(١) يريد أن الإسلام وفاه حمية الجاهلية فمنعه أن يعصب لنفسه، كما منع الحمى المحموم أن يرد الماء عليه.

ويوم الوشاح من أعاجيب ربنا على أنه من ظلمة الكفر نجانى

وسألتها أُم المؤمنين عائشة: ما هذا البيت الذى أسمعك تنشدينه؟ فقالت: شهدت عروسًا تجلى إذ دخلت مغتسلاً لنا وعليها وشاح فوضعته، فجاءت الحدياة فأبصرت حمرته فأخذته، ففقدوا الوشاح فاتهمونى به، ففتشونى تفتيشًا لم يدع من جسدى موضعًا إلا ناله، فرفعت رأسى وأنا أقول: «يا غياث المستغيثين أغثنى وبرئنى»، فما أتممتهن حتى جاءت الحدياة بالوشاح فألقته بينهم. فلو رأيتنى يا أُم المؤمنين وهن حولى يسألننى أن أجعلهم فى حل، فنظمت ذلك لنفسى فى هذا البيت من الشعر، فأنا أنشده لئلا أنسى النعمة فأترك شكرها.

ومما يتدرج تحت هذا العنوان ما أسنده الحافظ النسفى إلى حماد ابن سلمة أن عاصم بن أبى النجود شيخ القراء فى زمانه قال: أصابتنى خصاصة فجئت إلى بعض إخوانى فأخبرته بأمرى، فرأيت فى وجهه الكراهة، فخرجت من منزله إلى الصحراء فصليت ما شاء الله، ثم وضعت وجهى على الأرض وقلت: «يا مسبب الأسباب ومفتح الأبواب ومجيب الدعوات وقاضى الحاجات اكفنى بحلالك عن حرامك، واغننى بفضلك عمن سواك».

فوالله ما رفعت رأسى حتى سمعت وقعة بقربى فإذا حدياة طرحت كيسًا أحمر فأخذت الكيس فإذا فيه ثمانون دينارًا، وجوهرة ملفوفة فى قطنة مندوفة فبعت الجوهرة بمال عظيم وفضلت الدنانير فاشتريت بها عقارًا وحمدت الله عز وجل على ذلك.

وفى الرسالة القشيرية عن شبل المروزى أنه اشترى لحمًا بنصف درهم فاستلبته منه حدياة فدخل شبل مسجدًا يصلى فيه آسفًا على ما ضاع منه وقد فوض أمره إلى الله عز وجل. فلما رجع إلى منزله قدمت له زوجته لحماً

فسألها من أين لكم هذا اللحم؟ قالت: تنازعت حدأتان فسقط هذا اللحم منهما فقال شبل: الحمد الله الذى لم ينس شبلا وإن كان سبل ينساه.

المرء يعجز لا المحالة[1]:

قصد شاعر - رهقته الحاجه - باب بعض الكبار من ذوى السلطان ابتغاء معونه، ولكن الحجاب الثقيل حال بينه وبين الدخول عليه، فكان إذا رجع إلى داره خالى الوفاض، وازن بين شدة حاجته وبين بذل ماء وجهه، ثم راح ينشد قول الشاعر:

والله لـولا صبيـة صغـار ... كـأنما وجـوههم أقمـار
ودراديق[2] لـيس لهم دثـار ... بـالليل إلا أن تسب نـار
لمـا رأى مـلك جبـار ... ببـابه مـا وضـح النهـار

وقيم الرجل ينشد هذا الشعر فى صوت حزين يستجلب رثاء السامع إذ سمعه جار له، فسعى إليه يستنشده التعر مرة بعد أُخرى، ثم سأله عما به، فأنبأه قصته وبذله ماء وجهه، وحجبه عمن يملك سداد عوزه وتنفيس كربته. فقال الجار الحكيم: إنك شاعر لبيب، وتعرف أن فلاناً هذا الذى وضعت فيه أملك ونشدت عنده حاجتك مغرى بالصيد آلفًا له لا يكد يغبه، فلو صنعت شعرًا ترفع به حاجتك، ثم سألت الصياد أن يمنحك بعض ما يصيد من ظباء وثعالب وأرانب، لكان فى ذلك الخير الذى ترجوه لك إن شاء الله. فصنع الرجل أبياتًا من الشعر، واستمنح الصياد بعض ما يصيد، ثم جاء بها إليه قائلا له: هذا الشعر وهذه الظباء والثعالب والأرانب، فأمر بأن يكتب

---

(١) مثل يعنون به أن الإنسان فى مرجهه السداد قد يعجز دون المحال الذى خيبه أنجح.

(٢) الصغير من الأطفال والإبل والشاء

الأبيات فى رقاع وأن تشد الرقاع فى أذناب بعض وآذان بعض، على أن يراعى الشاعر خروج الأمير إلى الصيد، فإذا خرج كمن له فى مظانه، ثم أطلقها. فلما ظفر بها استبشر، ورأى تلك الرقاع، ووقف على ما فيها من شعر رائق - فزاد ذلك فى طربه، واستطرف الرجل واستلطفه، وتنبه على رعى ذمامه، ثم أمر بطلبه فأحضره، فبذل له من الخير ما فتئ يتمناه وفوق ما كان يتمناه.

الأئمة من قريش:

كان الإمام الشافعى - رضى الله تعالى عنه - جالسًا بين يدى الإمام مالك بن أنس يتلقى عنه تلميذًا له، فجاء رجل فقال لإمام دار الهجرة: إنى رجل أبيع القمارى وإنى بعت فى يومى هذا قمريًا فرده علىَّ المشترى وقال: قمريك هذا لا يصيح فحلفت له بالطلاق أنه لايهدأ من الصياح، فقال مالك للرجل: طلقت زوجتك فلا سبيل لك عليها - وكان الشافعى يومئذ ابن أربع عشرة سنة - فقال للرجل: «أيما أكثر صياح قمريك أم سكوته»؟ فقال: لا بل صياحه أكثر. فقال الشافعى: لا طلاق عليك، امض لزوجتك فهى لك حل. فلما انتهى الأمر إلى مالك دعا بالشافعى ثم قال له: «ياغلام من أين لك هذا؟» فقال: منك أنت فقد حدثتنى عن الزهرى عن أبى سلمة ابن عبدالرحمن، عن أُم سلمة: «أن فاطمة بنت قيس قالت: يارسول الله إن أبا جهم ومعاوية خطبانى». فقال ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه». وقد علم رسول الله ﷺ أن أبا جهم كان يأكل وينام ويستريح وقد قال لا يضع عصاه عن عاتقه على المجاز. والعرب تجعل أغلب الفعلين كمداومته، ولما كان صياح قمرى هذا، أكثر من سكوته - جعلته كصياحه دائمًا.

وإذا رأيت - رحمك الله - أن العجب يستبد بك، فاذكر أن السافعى عربى قرشى يلتقى مع رسول الله ﷺ فى عمود النسب الشريف، فهناك ترى أن لا موضع للعجب ولا موضع له أيضًا فى أن يأذن له إمام دار الهجرة بالفتيا، فيفتى من تلكم السن المبكرة، وصدق رسول الله: «الأئمة من قريش».

رُبَّ ملوم لا ذنب له:

ذكر الثقات من أهل العلم أن هارون الرشيد أو غيره من خلفاء بنى العباس، كان يعجبه الحمام واللعب به، وتسامع الناس ذلك عنه فتحطت إليه الهدايا به الحدود من الثغور من كل مكان.

وكان يجلس إلى الخليفة ذات يوم أبو البخترى القاضى أو غيره فأحب أن يتقرب إليه بحديث عن رسول الله ﷺ قارف فيه الكذب أقبح ما يكون الكذب وجهًا وأيسر سبيلًا إلى مال كثير من خليفة سخى مسماح فقال القاضى: روينا عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لا سبق إلا فى خف أو حافر أو جناح». فزاد الرجل - غفر الله له - كلمة جناح ولم تكن فى الحديث فأعطاه الرشيد أو غيره جائزة سنية، فلما غادر المجلس أمر بذبح الحمام فقيل له: «وما ذنب الحمام يا أمير المؤمنين؟» قال: «من أجله كذب على رسول الله ﷺ فأنا أكره أن أراه، وليس ينجينى من رؤيته إلا ذبحه. فمضى الناس يقولون كلما انتهى إليهم هذا الحديث: «رب ملوم لا ذنب له».

مسكين أبو هريرة رحمه الله فإنه - بتأوله حسب اجتهاده الأحاديث النبوية - يسر سلوك التأول البعيد أو الكذب الصراح على رسول الله ﷺ

جوار العلماء حرم:

كان العلامة الجليل فخر الدين الرازى صاحب حلقة فى خوارزم يؤمها طلاب المعارف والعلوم من كل مكان. وذات يوم سقطت بالقرب من مجلسه حمامة كان يطاردها جارح فوقعت قريبًا من العالم الجليل منهوكة القوة فريسة الخوف ثم لم تقدر على الطيران، فلما فرغ الإمام من درسه قام فوقف عليها ورقَّ لها ثم أخذها فوضعها فى كمه يقيها شدة البرد ثم انصرف، إلى داره، وكان فى المجلس الشاعر ابن عنين فقال على البديهة أبياتًا صور فيها هذا المعنى:

من أنبأ الورقاء أن جواركم ... حرم وأنك ملجأ للخائف
هبطت إليك وقد تدانى حتفها ... فحبوتها ببقائها المستأنف
ولو أنها تحبى بمال لانثنت ... من راحتيك بنائل متضاعف

المنحة بسوء التصرف محنة:

يروى أصحاب السير أن رجلا كان يحترف صيد السمك فى عصر موسى عَلية السلام فكان يعيش من هذه الحرفة مع زوجته وابنته فى ضيق شديد، يبكر كل صباح إلى البحر تبكير الغراب، حاملاً شبكته على كتف أوهنتها أثقال الحياة، والفقر يصرخ فى ثوبه البالى صراخ الجوع والأسى والمرض فى وجهه اليائس الحزين.

ولم يكن الرجل يعنيه أمر نفسه، بقدر ما كان يعنيه أمر زوجته وابنته، بالغًا بهما أسوأ المدى من شظف العيش وقسوة الحياة، فكان إذا عاد من رحلة صيده بغير صيد، تلقته زوجة سليطة بكل ما تحس المرأة السليطة من التقريع والتوبيخ، فى حين تتلقاه ابنته بكل ما فى عينيها من دمع وفى قلبها

من رحمة ورثاء، على أن دموع ابنته كانت الم لنفسه وأبعث لحزنه من شتائم زوجته بالغة ما بلغت من القسوة وذرابة اللسان.

وذات صباح خرج الرجل على عادته إلى البحر، وفيما هو فى طريق إليه أخذت عيناه سوادًا قادمًا من بعيد، فراح يتبينه وكلما زادت معالمه وضوحًا فى عينيه ازداد صدره انشراحًا وملأه قوة ورسوخًا، حتى إذا امتلأت من القادم عيناه، فاض قلبه يقينًا بالفرج بعد الشدة والطمأنينة بعد القلق.

لم يكن القادم سوى نبى الله موسى عليه السلام فكلما اقترب من الرجل أسرع إليه، والشباك تثقل على كتفيه، وحبالها المتدلاه تكاد تكون قيودا لقدميه. وفى خشوع اليائس وأمل اليائس تضرع إليه أن يسأل له ربه عيشًا أرغد وحياة أسعد، لأن حياة الصيد قد أرهقته وشفته مع أسرته، وركبته بشتى الآلام والأسقام. ولا ريب فى أن النبى لكريم أدركته للمسكين رقة، مما تبينه فى وجهه وجسده من جهد وهزال، وفى عينيه من خشوع ودموع، وأنبياء الله ورسله - فى كل زمان ومكان - صاغتهم عناية الله رحمات تسعى على قدمين فى دنيا الناس، يلوذ بهم الهلاك ويفزع إليهم اليائسون اليائسون فلفته عليه السلام إلى اللياذ بالله والثقة برحمته، ثم وعده أن يسأل الله تعالى له ما يهدأ به باله وتصلح عليه حاله، فيعيش مع زوجته وابنته فى نعمة سابغة وعيش رغيد.

وفيما كانت الشمس تتهيأ للمغيب، والصياد فى طريقه إلى كوخه صفر الشباك من الصيد مفعم الصدر بالهم، على إسفاق شديد من لسان زوجة سليطة ودموع ابنة كسيره، إذا نبى الله موسى ينظر إليه من بعيد وعلى شفتيه ابتسامه أشرق بها فى وجه الصياد اليائس، أمل فى فضل الله عظيم.

وما إن أبصر ذلك المسكين نبى الله يبتسم له، حتى أسرع إليه فألقمه

أذنه، فألقى إليه بضع كلمات أنسته شبكته فرماها ضيقًا بها وزهدًا فيها وملالًا من طول عشرتها، ثم مضى يوجُّ فى سيره جهة الكوخ الحقير الذى قدر أنه سيصبح عن قريب قيد النواظر وأُمنية المتمنى وحديث الناس.

لقد قال له موسى: إن الله قد استجاب لك ثلاث دعوات. فمهما دعوت بهن، فإن الله معطيك ما تحب إلا أن تؤثر الشر على الخير والباطل على الحق.

ولو كان لإنسان أن يجنّ من الفرح بنبأ صادق، لكان ذلكم الصياد أحق خلق الله بأعنف ألوان الجنون. ذلك أنه يستطيع بدعواته الثلاث أن يكون أغنى وأقوى وأسعد رجل فى الدنيا، ليس فوق سلطانه سلطان إلا لله رب العالمين. ولكن الله تعالى حفظ للرجل عقله لكى يمضى فيه قضاؤه، فأخذ يفكر فى أمثل الطرق التى يسلكها لإلقاء هذا الخبر إلى أُسرة مجهودة مكدودة لا تتطاول إلى أبعد من وجبة عشاء من أحقر مطعم فى أصغر سوق ثم تنام، لتستقبل الشقاء مع صباح جديد.

فلما أقبل الرجل صاحت به زوجته كعادتها فى صوت عال ساخر: كنت تجيئنا قبل اليوم بالسمك أو الشبك، وقد جئتنا الليلة ولا سمك ولا شبك.

وقالت الابنة البارة العطوف: إليك عن أبى يا أُماه، حتى إذا استراح من مشوار طويل ويوم شاق يائس رحنا ندبر الأمر فى هدوء، والمرء يعجز لا المحالة، وربنا لا يتخلى عن عباده الصابرين.

قال الصياد السعيد فى لغة الواثق ولهجة الوقور: جئتكم من عند نبى الله موسى بنبأ سعيد يقين، ثلاث دعوات مستجابات، تفضلت بهن علينا عناية الله ورحمته لقاء لياذنا ولجوئنا إليه وثقتنا فيه. وقالت الزوجة الدعوات ثلاث ونحن ثلاث: أنا وأنت وابنتنا، فلى دعوة ولك دعوة وللبنت دعوة. ولم يسع

الرجل أن يرفض اقتراح زوجته إما خشية من سلاطتها وإما إيثارًا لمرضاة ابنته التى كان يحبها من كل قلبه ويعطف عليها من أعماق نفسه.

وكان الخير لهذه الأسرة – وقد منحها الله من جميل عنايته ما كان يستعصى على الأحلام – أن تشكر نعمة الله على ما هيأ لها من الخير، وأن تستعرض شئونها وما تحتاج إليه لتتصرف على هدى ذلك فيما تستقبله من أيام، غير أن سوء النظر وتعجل الاستمتاع بشهوات الحياة من مال وجاه وسلطان قضى هذه الأسرة بالمحنة التى لا تطاق والبلاء الذى لا يحتمل. فقد آثرت المرأة فى تطاول الوضيع إذا وجد سبيل الرفعة أن تكون فتنة المدينة وهوى الأفئدة وحديث المجال، فتوجهت بدعوتها إلى الله أن يجعلها أجمل امرأة، واستجاب الله دعوتها فغدت كما أحبت أن تكون. ولم يكن ممكنًا أن تظل كما كانت فى الكوخ، فتركت زوجها وابنتها إلى حيث يتوافر لها ما تشاء متى تشاء كيف تشاء من مآرف العيش ومناعم الحياة. وأحس الزوج المهانة تحيط به والغيرة تستل نفسه من بين جنبيه فتوجه بدعوته إلى الله أن يمسخ زوجته قردة فى الكوخ الذى خرجت منه غير مبالية سخط ولا إنكار منكر. واستجاب الله الدعوة فإذا هى كما أحب لها زوجها أن تكون. ولم تحتمل البنت أن ترى أمها فى هذه الصورة القبيحة فتوجهت بدعوتها إلى الله أن يعيد أمها كما كانت. واستجاب الله دعوتها فعادت كما كانت رهينة كوخ وزوجة صياد.

وكذلك تحولت المنحة الإلهية الجليلة – بسوء التصرف وحماقه الاستبداد – محنة ثقيلة لا تطاق.

كذلك يروى القصاص هذه القصة فى كثير من الكتب، ومهما يكن الأمر فيها صدقًا أو كذبًا، وحقيقة أو مثلًا، فإن المغزى واضح والعبرة مسلمة عند الذين فقهوا أحداث التاريخ.

الفيران والدجاج:

كان رؤبة بن العجاج شاعر فحلًا، وكان يأكل الفيران[١]. فإذا سئل فى ذلك قال: هى والله أنظف من دواجنكم ودجاجكم اللاتى تأكل القاذورات. وهو يأكل الفأر إلا نقى البرّ ولباب الطعام.

وهذه الحجة مسلمة عند أهل الفقه فقد كان رسول الله ﷺ لا يأكل الدجاج المخلى حتى يحبس له أيامًا ثم يذبح، وكان ابن عمر كذلك يفعل وهو شديد الحرص على القدوة برسول الله. فاحتجاج رؤبة لإيثاره الفأر على الدجاج المخلى، احتجاج مسلم، له سند مما كان يفعل رسول الله وأصحابه.

الجراد غذاء ودواء:

روى القاضى أبو القاسم التنوخى[٢]، أن شابًّا من أهل اليسار أصابه مرض الاستسقاء، فيئس أهله من حياته، ولم يستطع الأطباء على كثرتهم وكثرة ما وصفوا له من دواء أن يردوا إليه عافيته، فلما استولى عليه اليأس توسل إلى أهله أن يدعوه يتزود من الدنيا قبل الرحيل، وحرص على أن يأكل كل ما يشتهى دون نظر إلى الحمية التى فرضت عليه، فأباحوا له أن يأكل ما يريد لا يمنعونه شيئًا يشتهيه. وذات يوم اجتاز به رجل يبيع جرادًا مطبوخًا، فأجلسه واشترى منه عشرة أرطال ثم أكلها بأسرها. فلما كان بعد ساعة، انحل طبعه وتواتر قيامه حتى قام فى ثلاثة أيام من مائة مجلس، وضعف وكاد يتلف، ويئس منه أهله. وفجأة انقطع قيامه وقد زال كل ما كان فى جوفه، وعادت بطنه إلى حاله من الصحة، وثابت إليه قوته فبرأ، وخرج على قدميه فى اليوم الخامس يتصرف فى حوائجه كسابق عهده.

---

١) يعنى فيران القطن لا فيران البيوت.

٢) كتاب الفرج بعد الشدة.

ومرّ به أحد الأطباء الذين كانوا يتولون علاجه، فعجب من أمره ورعه ما رأى من دلائل صحته، فسأله عن الخبر، فلما عرفه إياه قال: إن هذا ليس من شأن الجراد، ولابد أن يكون فى هذا الجراد خاصية زائدة عليه، فأحب أن تدلنى على من باعك هذا الجراد، فما زالوا فى طلبه حتى اجتاز بالباب مرة ثانية وهم يرقبونه. فلما راه الطبيب سأله: ممن اشتريت هذا الجراد؟ فقال: أنا لا أشتريه ولكنى أصيده، وأجمع منه شيئًا كثيرًا، فأطبخه وأبيعه. فسأله الطبيب: هذا دينار لك، على أن تدع شغلك وتجيء معى إلى ذلك الموضع. فخرجا معًا. وعاد الطبيب من الغد فذكر أنه رأى ذلك الجراد يرعى فى صحراء ذات حشائش هى دواء الاستسقاء، فإذ دفع إلى العليل منها دون درهم أسهله إسهالاً يزيل الاستسقاء، ولكن لا يؤمن من أن ينضبط ولا يقف، فربما قتل الذرب العليل. فالعلاج بها خطر جدًّا، ومع أنه مذكور فى الكتب لا يكاد يصفه الطبيب لفرط ضرره. فلما وقع الجراد على هذه الحشائش، وانطبخت فى معدته، لم ينطبخ الجراد أيضًا - ضعف فعلها بطبخين اجتمعتا، وقد قدر الله تعالى لهذا العليل أن يتناول هذا الجراد مصادفة، فتناولها وقد تعدلت بمقدار ما يدفع طبعه دفعًا قطع بانقطاع العلة فبرأ. فهذا من عجائب الاتفاق.

والحيات أيضًا:

ومن عجيب المصادفات أيضًا ما حدَّث به أبو على عمر بن يحيى العلوى الكوفى - رحمه الله - حيث يقول: كنت فى بعض حججى فى طريق مكة، فاستسقى رجل كان معنا من أهل الكوفة، وثقل فى علته. وسأل الأعراب قطارًا من القافلة كان على جمل منه هذا العليل. فافتقده الناس وجزعوا عليه وعلى القطار، مرجعهم إلى الكوفة.

فلما كان بعد مدة جاءنى العليل إلى دارى معافى، وسألته عن قصته وسبب عافيته، فقال: إن الأعراب لما سلوا القطار ساقوه إلى محلهم، وكان من المحجة على فراسخ يسيرة. فأنزلونى ولما رأوا صورتى ومبلغ علتى، طرحونى فى أواخر بيوتهم، وتقاسموا ما كان فى القطار. فكنت أزحف وأتصدق من البيوت ما آكله. فأطعم، حتى تمنيت الموت، فكنت أدعو الله عز وجل به أو بالعافية. وذات يوم رأيتهم وقد عادوا من ركوبهم فأخرجوا أفاعى قد صادوها، ثم قطعوا رءوسها وأذنابها وشووها وأكلوها. فقلت فى نفسى: هؤلاء قوم يأكلون هذه الأفاعى فلا تضرهم بالعادة التى نشئوا عليها، فلعلى إن أكلت منها شيئًا أن أتلف فأستريح مما أنا فيه. فقلت لبعضهم: أطعمنى من هذه الحيات، فرمى إلى بواحدة منها مشوية فيها أرطال، فأكلتها بأسرها وأمعنت طلبًا للموت، فأخذنى نوم عظيم، فانتبهت وقد عرقت عرقًا عظيمًا، واندفعت طبيعتى فقمت فى بقية يومى وليلتى أكثر من مائة مجلس، إلى أن سقطت طريحًا، وجوفى يجرى. فقلت: هذا طريق الموت، وأقبلت أتشهد وأدعو الله عز وجل بالمغفرة. فلما أضاء الصبح، تأملت بطنى فإذا هو قد ضمر، وزال عنه ما كان به. فقلت: أى شىء ينفعنى من هذا وأنا ميت؟ فلما أضحى النهار وانقطع القيام، وجبت صلاة الظهر فلم أحس بقيام، وجعت جوعًا شديدًا، فجئت لأزحف على العادة، فوجدت بدنى خفيفًا وقوتى صالحة. فتحاملت فمشيت فطلبت منهم مأكولاً فأطعمونى فقويت، فبت فى الليلة الثانية معافى ما أنكر من أمرى شيئًا. فأقمت أيامًا إلى أن وثقت من نفسى بأنى إن مشيت نجوت. فأخذت الطريق من بعضهم إلى أن صرت على المحجة فسلكتها إلى الكوفة مشيًا على قدمى. وهأنذا بين يديك كما ترانى، فالحمد لله.

المرأة والصيد:

الصيد من حيث هو لون من ألوان الفروسية، لم ينفرد به الرجل، بل شاركته فيه المرأة، غير أنه فى سكان البادية أعظم وأظهر، لمصاقبتهم الوحشيات ومنازلتهم إياها، فلا يزال أهل البادية لها ذاكرين ومنها طاعمين.

روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه «الأغانى» أن حمادًا الراوية قال: أتيت مكة فجلست فى حلقة فيها عمر بن أبى ربيعة المخزومى فتذاكرنا العذريين[1]، فقال عمر بن أبى ربيعة: كان لى صديق من بنى عذرة يقال له الجعد بن مهجع وكان يلقى من الصبابة ما لا يحتمله إلا عذرى، على أنه كان لا عاهر الخلوة ولا سريع السلوة. وكان يوافى فى موسم الحج فى كل سنة؛ فإذا راث[2] عن وقته ترجمت عنه الأخبار، وتوكفت[3] له السفار حتى يقدم، فإذا قدم تحدثنا حديث صبيين عاشقين محزونين.. وقد ارتاث على داب عام خبره حتى قدم وافد عذرة فأتيت القوم أنشد صاحبى، فإذا غلام يتنفس الصعداء ثم قال: عن أبى السمهر تسأل؟ قلت: عنه نشدت، وإياه أردت. قال: هيهات هيهات لقد أصبح والله لا مؤيسًا فيهمل، ولا مرجوًّا فيعلل، فهو - والله - كما يقول الشاعر:

لعمرك ما حبى لأسماء تاركى ... أعيش ولا أقضى به فأموت

قلت: وما الذى به رحمك الله؟ قال: مثل الذى بك من التهالك فى الضلال، وجر أذيال الخيبة والخسار، كأنما لم تسمعا بجنة أو بنار.

قلت: من أنت يا ابن أخى؟ قال: أنا أخوه. قلت: أما والله ما منعك أن

---

(١) بنو عذرة.

(٢) تأخر.

(٣) تعرض لى.

تركب طريق أخيك وتسلك مسلكه، إلا أنك وإياه كالوشى والبجاد، لا يرقعك ولا ترقعه، ثم صرفت وجه ناقتى وأنا أقول:

أرائحة حجاج عذرة وجهة ... ولما يرح فى القوم جعدين مهجع
خليلان نشكوما نلاقى من الهوى ... متى ما يقل أسمع وإن قلت يسمع
ألا ليت شعرى أى شىء أصابه ... فى زفرات هجن ما بين أضلعى
فلا يبعدنك الله خلًّا فإننى ... سألقى كما لاقيت فى الحب مصرعى

فلما حججت وقفت فى الموضع الذى كنت أنا وهو نقف فيه من عرفات، فإذا إنسان قد أقبل وقد تغير لونه وساءت هيئته، فما عرفته إلا بناقته، فأقبل حتى خالف بين أعناقهما، فاعتنقنى وجعل يبكى. فقلت: ما الذى دهاك؟ فقال: برح العذل وطول المطل، ثم أنشأ يقول:

لئن كانت عدبة ذات لب ... لقد علمت بأن الحب داء
ألم تر وجهها تغيير جسمى ... وأنى لا يفارقنى البكاء
فإنى لو تكلفنى كلامًا ... لقف الكلم وانكشف الغطاء
فإن معاشرى ورجال قومى ... حتوفهم الصبابة واللقاء
إذا العذرى مات بحتف أنف ... فذاك العبد يبكيه الرثاء

فقلت: يا أبا المسهر، إنها ساعة تضرب إليها أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها، فلو دعوت كنت قمنًا أن تظفر بحاجتك، فدعا، حتى إذا دنت الشمس للغروب، وهمَّ الناس بالإفاضة، همهم بشىء فأصغيت له، فسمعته يقول:

يا رب كل غدوة وروحة ... من محرم يشكو الضحى واللوحة
أنت حسيب الخلق يوم الدوحة

قلت: وما يوم الدوحة؟ قال: والله لأخبرنك ولو لم تسألنى.

ثم تيممنا مزدلفة فقال: إنى رجل ذو مال ونعم وشاء، وإنى خشيت على إبلى التلف، ونصر الغيث[١]، أرض كلب، فانتجعت أخوالى منهم، فأوسعوا لى عن صدر المجلس، وسقونى جمة الماء، وكنت معهم فى خير أحوال. ثم إنى عزمت على مرافقة إبلى بماء لهم يقال له الحردان، فركبت فرسى، وعلقت شرابًا معى كان أهداه إلىّ بعض الكلبيين، ثم انطلقت، حتى إذا كنت بين الحمى ومرعى النعم[٢]، ورفعت لى دوحة عظيمة، فنزلت عن فرسى وشددته بغصن من أغصانها، وجلست فى ظلها. فبينما أنا كذلك إذ سطع غبار من ناحية الحمى، ثم رفعت لى شخوص ثلاثة، ثم تبينت فإذا فارس يطرد مسحلاً[٣] وأتانا. فلما قرب منى إذا عليه درع صفراء، وعمامه خز سوداء، وإذا فروع شعره تضرب خصريه. فقلت فى نفسى: غلام حديث عهد بعرس أعجلته لذة الصيد فنسى ثوبه وأخذ ثوب امرأته. فما لبث أن لحق المسحل فصرعه، ثم ثنى طعنة للأتان وأقبل وهو يقول:

نطعنهم سلكى ومخلوجة كرّك لا منى على نابل[٤]

فقلت له: لقد تعبت وأتعبت فرسك، فلو نزلت. فثنى رجله فنزل فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة، وألقى رمحه، وأقبل حتى جلس. فجعل يحدثنى حديثًا ذكرت به قول أبى ذؤيب:

---

(١) نصر الغيث الأرض: أصاب الغيث فأخصبت.

(٢) عن سيخ الإسلام الهروى كلمة النعم إذا أطلقت أريد بها الإبل.

(٣) الحمار الوحشى.

(٤) سعر لامرىء القيس. السلكى: الطعنة المستقيمة، فإن اتجهت يمينًا أو شمالاً فهى المخلوجة والنابل: رمى النبال. الكر: اللف.

وإن حديثًا منك لو تبذلينه جنى النحل فى ألبان عوز مطافل[1]

فبينما هو كذلك، إذ نكت بالسوط على ثنيته، فما ملكت نفسى أن قبضت على السوط وأنا أقول له: به. فقال: وله؟ قلت: أخاف أن تكسرها فإنها رقيقتان. فقال: وهما أيضًا عذبتان. ثم رفع الغلام عقيرته يتغنى:

إذا قبل الإنسان آخر يشتهى ثناياه لم يأثم وكان له أجرا
فإن زاد زاد الله فى حسناته مثاقيل يمحو الله عنه بها الوزرا

ثم قال: ما هذا الذى تعلقته؟ قلت: شراب أهداه لى بعض أهلك، هل لك فيه؟ قال: أنت وذاك فأتيته به فشرب، وجعلت أنظر إلى عينيه كأنهما مهاة قد أضلت ولدًا وذعرها قانص، فرأى نظرى، فرفع عقيرته يتغنى:

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

فقلت: من أين لك هذا الشعر؟ فقال: وقع رجل منا نحو اليمامة فهو الذى أنشدنيه. ثم قمت لأصلح شيئًا من أمر فرسى، فرجعت وقد حسر الغلام العمامة عن رأسه، فإذا هو أحسن الناس وجهًا، فقلت: سبحانك اللهم، ما أعظم قدرتك، وأحسن صنعتك. قال: وكيف قلت ذلك؟ قلت: مما راعنى من نور وجهك وبهرنى من جمالك. قال: وما الذى يروعك من حبيس التراب وأكيل الدواب، ثم لا يدرى أينعم بعد ذلك أو يبتئس؟ قلت: بل لا يصنع الله بك إلا خيرًا إن شاء الله. ثم قام الغلام إلى فرسه، فلما أقبل برقت لى بارقة من الدرع فإذا ثدى كأنه حق. فقلت: نشدتك الله، أنت رجل أو امرأة؟ فقال: إنى والله امرأة تكره العهر وتحب الغزل. قلت: وأنا

---

(١) الحديثان النتاج.

والله لكذلك. فجلست تحدثني ما أفقد من أُنسها شيئًا، حتى مالت على الدوحة. فاستحسنت والله الغدر يا ابن ربيعة وزين في عيني، ولكن الله عصمني، فجلست منها بعيدًا، فما لبثت أن انتبهت مذعورة، فلاثت عمامتها، وأخذت رمحها، وجالت في متن فرسها. وقالت: جزاك الله عن الصحبة خيرًا. قلت: ألا تزودينى منك زادًا؟ فناولتني يدها فقبلتها، فشممت منها والله المسك المفتوت. ثم قلت: أين الموعد؟ قالت: إن لي إخوة شرسًا، وأبا غيورًا. ولأن أُسرك، أحب إلي من أن أضرك ثم مضت، فكان والله آخر العهد منها إلى يومي هذا. فهي والله التي بلغتني هذا المبلغ. وبكى. فقال ابن أبي ربيعة: فدخلتني له رقة، وقلت له: لو لم أبلغ حاجتك بمالي، لسعيت في ذلك حتى أقدر عليه.

فلما انقضى الموسم شددت على ناقتي، وسدَّ على ناقته، وحملت غلامًا على بعير، وجعلت عليه قبة أدم حمراء كانت لأبي، وأخذت معي ألف دينار ومطرف[١] خز، ثم خرجنا حتى أتينا بلاد كلب، فإذا الشيخ أبو الجارية في نادي قومه، وإذا هو سيد الحي، وإذا الناس حوله، فوقفت على القوم وسلمت؛ فردَّ الشيخ السلام، ثم قال: مَن الرجل؟ قلت: عمر بن عبد الله ابن أبي ربيعة المغيرة المخزومي. قال الشيخ: المعروف غير المنكر، فما الذي جاء بك؟ قلت: جئت خاطبًا. قال: الكفء والرغبة. قلت: إني لم آت ذلك لنفسي عن غير زهادة فيك، ولا جهالة بشرفك، ولكني أتيت في حاجة ابن أُختكم هذا العذري، وها هو ذا. فقال: إنه والله لكفء الحسب رفيع المنصب، غير أن بناتي لا يقعن إلا في هذا الحي من قريش. فعرف الجزع في وجهي. فقال: أما إني لصانع بك ما لم أصنع بغيرك.. أُخيرها.. فهي ومـ

---

(١) رداء أو ثوب

اختارت. فقلت: والله ما أنصفتنى، إذ تختار لغيرى، ووليت الخيار لى غيرك. فأومى إلى صاحبى أن دعه يخيرها. فأرسل إليها بالخيار وقال: رأيك ! فقالت: ما كنت لأستبد برأى دون رأى القرشى وما اختار. قال الشيخ: فقد صيرتُ إليك الأمر. قال ابن أبى ربيعة: فحمدت الله جل ذكره، وصليت على محمد ﷺ وقلت: قد زوجتها الجعد بن مهجع، وأصدقتها هذه الألف دينار، وجعلت تكرمتها العبد والبعير والقبة، وكسوت الشيخ مطرف الخز. وسألته أن يبنى من ليلته، فأرسل إلى أُمها فأبت وقالت: أتخرج ابنتى كما تخرج الأمة. قال الشيخ: فعجّلى فى جهازها. فما برحت حتى ضربت القبة فى وسط الحريم وأهديت إليه ليلاً، وبتّ أنا عند الشيخ فلما أصبحت، أتيت القبة فصحت بصاحبى فخرج إلى وقد بدا السرور فى وجهه. فسألته: كيف كنت بعدى، وكيف هى بعدك؟ فقال لى: لقد والله أبدت لى كثيرًا مما كانت تخفيه عنى يوم لقيتها تحت الدوحة فقلت له: أقم على أهلك بارك الله لك فيهم. ثم انطلقت وأنا أقول:

كفيت أخى العذرى ما كان نابه ... وإنى لأعباء النوائب حمال
أما استحسنت منى المكارم والعلا ... إذا هجرت، إنى لمالى بذال

فقال أخى العذرى:

إذا ما أبو الخطاب خلى مكانه ... فأف لدنيا ليس من أهلها عمر
فلاحىّ فتيان الحجازين بعده ... ولا سقيت أرض الحجازين بالمطر

الصدق ينبئ عنك لا الوعيد:

حدَّث العتبى عن ثقات أشياخه قال:

كنت عند المهاجر بن عبد الله، والى اليمامة، فأتى بأعرابى كان معروفًا

بالسرق. فقال له الوالى: أخبرنى عن بعض عجائبك. فقال: كان لى بعير لا يسبق وخيل لا تلحق، فكنت إذا خرجت لا أرجع خائبًا أبدًا. فخرجت يومًا فاحترشت ضبًّا فعلقته على قتبى، ثم مررت بخباء فيه عجوز ليس معها غيرها. فقلت: لابد أن يكون لهذه العجوز رائحة[1] من غنم وإبل. فلما أمسيت إذا بإبل وشيخ عظيم البطن شثن الكفين معه عبد أسود. فلما رآنى رحب بى، ثم قام إلى ناقة فاحتلبها، وناولنى العلبة فشربت ما يشرب الرجل، فتناول الباقى فشربه، ثم احتلب عدة أينق فشرب ألبانهن، ثم نحر حُوارًا[2] فطبخه، فأكلت شيئًا، وأكل هو سائره، ثم حثا كومة من البطحاء فتوسدها، ثم غط غطيط البكر سد خناقه، فقلت: هذه والله الغنيمة، ثم قمت إلى فحل إبله فخطمته ثم قرنته ببعيرى وصحت به، فأتبعنى الفحل وسائر الإبل فى قطار، فصارت خلفى كأنها حبل ممدود. فمضيت أبادر ثنية بينى وبينها مسيرة ليلة للمسرع، ولم أزل أضرب بعيرى، مرة بيدى ومرة برجلى، حتى طلع الفجر، فأبصرت الثنية وإذا عليها شخص، فلما دنوت إذا الشيخ قاعد وقوسه فى حجره، فلما أبصرنى قال: أضيفنا؟ قلت: نعم. قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل؟ قلت: لا. فأخرج سهمًا كأنه لسان كلب، ثم قال: انظره بين أُذنى الضب المعلق فى قتبك، ثم رماه فصدع عظمه عن دماغه. ثم قال لى: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيى الأول. قال: انظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى، ثم رمى به، فكأنما قدره بيده ثم وضعه باصبعه ثم قال: أرأيتك؟ فقلت: أنزل آمنًا؟ قال: نعم. فدفعت إليه خطام فحله وقلت: هذه إبلك، لم يذهب منها وبرة. وأنا أتوقع أن يرمينى بسهم يقصد به قلبى.

---

(١) روح من المرعى

(٢) ولد الناقة من وقت ولادتها إلى أن يفطم ويفصل - الجمع أحوره.

فلما تباعدت قال: أقبل . فأقبلت والله فرقًا من شره لا طمعًا فى خيره. فقال: ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا عن حاجة. قلت: نعم والله.

قال: فاقرن من هذه الإبل بعيرين وامض لطيتك. ولم أملك أن قلت: أما والله لا أمضى حتى أُخبرك عن نفسك، فلا والله ما رأيت أعرابيًّا قط أشد ضرسًا، ولا أعدى رجلًا، ولا أرمى يدًا، ولا أكرم عفـوًا، ولا أسخى نفسًا منك. فصرف الشيخ وجهه عنى حياء، ثم قال: خـذ ما شئت من الإبـل مباركًا لك فيها.

الاستقصاء فرقة:

حدَّث إبراهيم الشيبانى قال: بلَغ رجل من أهل الكوفة عن رجل من أهل الـسلطان، أنه يعرض ضيعة له «بواسط» فى مغرم لزم للخليفة، فحمل وكيلًا له على بغل، وأترع له خرجًا بدنانير قائلًا له: اذهب إلى واسط فابتع الضيعة المعروضة، فإن كفاك ما فى الخرج، وإلا فاكتب إلىَّ أمدّك بالمزيد. فلما أصحر الرجل عن البيوت، لحق به أعرابى على حمار ومعه قوس وكنانة. فقال له: إلى أين تتوجه؟ فقال: إلى واسط. قال: فهل لك فى الصحبة؟ قال: نعم. فسارا حتى فوزا، فعنّت لهما ظباء، فقال الأعرابى: أىّ هذه الظباء أحب إليك، المتقدم منها أم المتأخر، فأزكيه لك؟ قال: المتقدم. فرماه فخرمه بالسهم فاشتويا وأكلا، وقد اغتبط الرجل بصحبة الأعرابى. ثم عنّت لهما زمرة من القطا، فقال: أيها تريد فأصرعها لك؟ فأشار إلى واحـدة منها، فرماها فأقصدها. ثم اشتويا وأكلا. فلما انقضى طعامهما، فوق له الأعرابى سهمًا. ثم سأله: أين تريد أن أصيبك؟ فقـال له: اتق الله واحفظ زمـام الصحبة. قال: لابد من ذلك. قال: اتق الله ربك، واستبقنى، ودونك البغل والخرج فإنه مترع مالًا. قال: فاخلع ثيابك. فانسلخ من ثيابه ثوبًا ثوبا،

حتى بقى مجردًا عريانًا. فقال له: اخلع خفيك. فقال: اتق الله فىَّ ودع لى الخفين أتبلغ بهما، فإن الرمضاء تحرق قدمى. قال: لابد من ذلك. وكان يلبس خفين مطابقين، فلم تناول الخف ليخلعه ذكر خنجرًا كان معه فيه، فاستخرجه فضرب به فى صدره فشقه إلى عانته وهو يقول: الاستقصاء فرقة. فذهبت مثلًا. وكان هذا الأعرابى من رماة الحدق، وهم قوم من طيِّئ أو من لوبة، عُرفوا بالرماية.

الصائد يتخيل والعالم يخترع:

من الأقوال المأثورة أن أحلام الأمس حقائق الغد. فما كان يبدو على ألسنة الرواة خيالًا غالبًا، قد أصبح على أيدى العلماء حقيقة واقعة. وإذا كان لابد من مثال يتقرر به صدق هذا القول المأثور، فإنك واجد فى شتى الكتب العربية التى عنيت بالآداب والعلوم والفنون، نوادر وملحًا قصد بها أسلافنا تنشيط القارئ حتى لا يدركه الملال فيصرفه عن النظر فيما احتوته كتبهم من الجد الخالص والحكم المسلمة. ومن ذلك فصل عقده المؤلفون لتكاذب الأعراب وفيه أن أعرابيين قال أحدهما لصاحبه: هلم نتكاذب، وأهل الندى شاهدون، فأينا حكموا له، فهو الصريح الذى لم تشنه هجنة، ولم تشب فصاحته عجمة، على أن تبدأ أنت وأثنى أنا. قال: نعم. قال: خرجت ذات صباح مبكرًا تبكير الغراب وتحتى فرس يسبق وفد الريح. وفى يدى سيف أستله من العمد فتفغر المنايا أفواهها. ثم نظرت فى الأفق البعيد، فإذا قطعة من الليل لا تزال قائمة فيه لم تنجب، فركضت إليها فرسى وحملت عليها بسيفى حتى انجابت وخلص من ظلمة الليل بياض النهار. وتعجب القوم مما سمعوا حتى أغرقوا فى الضحك مما غلا الرجل فى خياله، وإن كانوا قد استأسروا لفصاحته ومحسن بيانه.

قال الآخر: أما أنا، فقد كنت مغرمًا بالظباء أتحين وقت صيدها ثم أخرج إليها. فحينًا أصطادها بالنريعة، وحينًا بالحضر خلفها حتى آخذ بقرونها وحينًا بالقوس أرميها عنها فأذكيها

وذات يوم سنحت لى ظبية. حتى إذا ظننت أننى استمكنت منها، رميت، فإذا هى تنحرف ذات اليمين، فينحرف السهم إليها، فتنحرف الظبية ذات الشمال فينحرف السهم إليها، فتثب الظبية فيثب السهم، فتسف فيسف، وما زال بها حتى صرعها.

كان هذا منذ مئات السنين خيالاً، ولعله كان فى تقدير بعض الناس خيالاً سخيفًا، لشدة ما كان يستعصى على التصور ويتأبى على الوقوع. غير أن الذين شهدوا الحرب العالمية الثانية رأوا هذا الخيال الغالى يتحول إلى حقيقة علمية واقعة فى دنيا الحرب، إذ رأوا اللغم المغطس فى البحر يتبع البوارج الحربية والسفن التجارية، فيميل معها حيث مالت، ويتعرج معها كيفما تعرجت، ولا يزال يلاحقها فى مختلف مساراتها حتى يصيبها.

وكذلك الصاروخ المغطس فى الجو، يتبع الطائرات فى أرفع آفاقها، حتى يسقطها. وربما تكشف الأيام - فى قابل بعيد أو قريب - ما لا يتسع له تصور، ولا يسخف معه خيال، مهما كان مغرقًا فى أبواب الأوهام. وهكذا تصدق الكلمة المأثورة: أحلام الأمس حقائق الغد.

التاس هم الناس:

ذكر العالم المصرى الجليل «القلقشندى» الببغاء فقال: هى طائر أخضر اللون فى قدر الحمام تحاكى ما تسمعه من لفظ، وهى دمثة الأخلاق ثاقبة الفهم، ذات قدرة على حكاية الأصوات وقبول التلقين. والملوك والأكابر يتخذونها لتنمّ لهم بما تسمع.

وأنت حين تقرأ هذا الكلمات، مستعرضًا ما يحدث فى زماننا هذا من ظمأ الحكام إلى تسقط أخبار الناس وتتبع عوراتهم، لا تملك أن تدفع عن نفسك خواطر تتواثب إلى ذهنك، تنعقد بها بين الماضى والحاضر موازنة تتلخص نتائجها فى أمرين:

أحدهما: أن التجسس داء قديم وإن يكن بعضه مشروعًا لأنه يستهدف حماية البلاد، وبعضه غير مشروع لأنه يستهدف إرواء أحقاد تتلظى فى صدور فرد أو جماعة تبتغى هتك الأستار وفضح الأسرار، وقد بدأ التجسس منذ أقدم العصور ساذجًا محدودًا، بمثل استخدام البيغاء التى أشار إليها القلقشندى. ثم مضى بخطى واسعة إلى غايته، خفى المعالم نفاذًا، حتى بلغ به العلم أبعد الغايات.

وثانيهما: أن التقدم العلمى - منحلًا عن قيود الخلق والمروءة - أصبح محنة يستعاذ بالله منها، وقد كان منحة يبتغى فضل الله تعالى فيها. ذلك أن عبقرية العلماء استطاعت أن تخلق ببغاوات آلية، قادرة على حفظ الكلمات وحكايتها، وتلك هى أشرطة التسجيل المعروفة وأجهزة الإرسال الدقيقة التى يمكن وضعها فى أزرار الأقمصة، أو دبابيس أربطة العنق أو ساعات اليد وما إلى ذلك، فإذا الإنسان مصاحب بها فى كل مكان يحل فيه، حاليًا بعمله فى مكتبه أو بزوجة فى مخدعه، أو برب فى مصلاه شاكيًا ظلم ظالم أو عدوان غاصب لمال أو متاع، وصارعًا إليه تعالى أن يكفيه شر الظلمة المسلطين. فإذا الببغاوات الآلية، قابعة فى أشرطة التسجيل وأجهزته، تحصى عليه كل كلمة يقولها فى خلواته حريصًا على ألا تهتك عنها الأستار أو تكشف فيها الأسرار.

ولا يزال قومنا فى مصر وفى غيرها يذكرون أن السيد الرئيس «محمد أنور السادات» قصد ذات يوم فى موكبه الرسمى إلى وزارة الداخلية لكى يشهد بنفسه ببغاوات العلم الحديث قابعة أُلوف الأشرطة التى كانت تسجل ما يفضح أسرارًا وهتك أستارًا ويقطع وشائج ويدمّر بيوتًا ويفضح أعراضًا. وفى حفائر فى فناء وزارة الداخلية أُلقيت هذه الأشرطة الآثمة ثم أشعلت فيها النار شديدة القرم إليها، بالغة الحرص على التهامها.

وليس يعلم أحد ماذا كانت تحمل تلك الأشرطة من جرائم وآثام لو لم يبتدرها بالنار الرئيس غيرة على أعراض المواطنين التى هى عرض مصر والأمة العربية جمعاء، فعرف الله له هذا الصنيع.

إن مع العسر يسرا:

ومن الببغاء نوع يدعى «أبا زريق» وربما أطلقوا عليه «الزرياب» طائر شديد الإلف للناس، سريع الإدراك لكل ما يلقى عليه، ثم هو إذا دربَّ كان أحسن من الببغاء وأنفس، فجاء منطقه واضحًا، وحروفه مبنية مفصَّلة تفصيلاً، حتى ليظن سامعه أن الذى يتكلم إنما هو إنسان فصيح، بخلاف الببغاء المعروفة فإنها ليست بهذه المنزلة من الفصاحة والبيان.

ومن طريف ما يحكى فى أمر «أبى زريق» هذا ما ذكره صاحب منطق الطير فى شأنه، فقد خرج رجل من بغداد كان يتجر فى الببغاوا وكان كل ما معه من مال أربعمائة درهم، لا يملك سواها من دنيا بغداد الزاخرة بالمال والجاه والترف. وفيما هو فى طريقه إلى غير غاية، والدنيا فى عينيه أضيق من كفة الحا أبصر صيادًا معه عدة من فراخ «أبى زريق» أعجبه ما راه من فصاحة منطقها وحسن بيانها، فاشتراها منه بكلّ ما معه من مال، راجيًا أن يكون بذلك رجلًا معدودًا من أغنياء بغداد إذا قدِّر لهذه الفراخ من يعرف

قيمتها فيشتريها منه، ورجع الرجل إلى بغداد فعلقها فى دكانه فى أقفاص جميلة تزيد فى قيمتها عند الحراص على اقتنائها. وهبَّت عليها ذات ليلة ريح باردة فماتت كلها إلا واحدًا منها كان أصغرها حجمًا وأضعفها قوة.. ولا ريب أن محنة الرجل بذلك كانت بالغة غاية المدى، فبات فى دكانه بعيدًا عن زوجه وولده مكروبًا مهمومًا مغمومًا، لم تغتمض عيناه طول ليله وهو يبتهل إلى الله تعالى: «يا غياث المستغيثين أغثنى»، ثم غفا إغفاءة بعد جهد جاهد وحزن بالغ، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذى نجا من الموت على ضعف صحته وضآلة حجمه يصيح فى لسان فصيح: «يا غياث المستغيثين أغثنى».

وما إن سمع الرجل هذه الاستغاثة حتى تضاعف همه واستحكم ألمه، وقد كان خليقًا أن يسرى عنه، لأنه تصور أن بقية الأفراخ لو كانت قد بقيت له، لا ستطاع أن يبيعها بما يردّ عليه الدراهم الأربعمائة التى أنفقها ثمنًا لها. وكان هذا الخاطر يكاد يلتهب فى صدره كلما أبصر البغداديين يتنادون إلى رؤية الطائر العجيب والاستماع إليه، فتسيل إليه سكك المدينة وشوارعها زرافات ووحدانًا بالنساء والرجال والصبايا والصبيان والجوارى والغلمان بغير فرق بين عابد وشاطر ومؤمن وملحد، وقاض على بغلة مسرجة ملجمة وصوفى فى مرقعة سنخة زنجة[1]. وقد احتشد الجميع أمام الدكان واتخذوا من الطائر العجيب إمامًا لهم يرددون معه: «يا غياث المستغيثين اغثنا».

لقد كانت بغداد آنئذ قد أصابها داء الأمم حين تسود الأطماع وتنتكس الأوضاع وتتكاثر الفتن، ينفخ فى نارها الحرص على الجاه والإبقاء على السلطان، فبات الترف فى المطعم والمشرب والمسكن والملبس هو المثل الأعلى الذى يتطاول إليه كل بغدادى وبغدادية.

---

(١) تغيرت رائحتها.

والناس حين ينتهى بهم الترف وانحلال الثقة بين الحاكم والمحكوم، إلى هذه الصورة البائسة اليائسة، تتفرق بهم السبل، فمنهم من ينطوى على نفسه لا يفعل شيئًا، ومنهم من يغامر لا يبالى شيئًا، ومنهم من يجارى ليبلغ شيئًا أى شىء، ومنهم من يتصوف صادقًا أو كاذبًا ومحقًا أو مبطلاً، يبتغى من ذلك وقد خسر الدنيا أنه يربح الآخرة إن كان مؤمنًا بها، أو أن يأمن بطش الجبارين إن كان مزعزع العقيدة سقيم الوجدان.

وفيما الناس على هذه الصورة العجيبة، يختلط فيها الكبار والصغار دون فارق من سن أو مرتبة، مرت جارية الملكة وجوارى الملوك يومئذ كان لهن شأن، فكن قيد النواظر إذا برزن، ومهفى الأسماع إذا تحدثن. وأشارت الجارية إلى صاحب الدكان، ثم قالت له: كم من المال تريد ثمنًا لطائرك هذا؟ فقال: ما تشاء سيدتى مشكورة مقدورة. فقالت: علىَّ به، وسأبعث إليك بألف دينار.

وكاد الرجل يجن من الفرح. لأنه لم يكن يحلم بألف درهم فضلاً عن ألف دينار. فرضى نفسًا وقرَّ عينًا بما رزقه الله. ولم يكن يكف بعد ذلك عن هذه المناجاة «يا غياث المستغيثين أغثنى».

الكناية والصيد:

الكناية أن تتكلم بالشىء، وأنت تريد غيره مما هو منه بسبيل، تبتغى بذلك صيانة لسانك عما يستهجن التصريح به، وهى فن من البيان دقيق المسلك، لا ينفذ إليه إلا كل بصير بمخارج الكلام ومداخله، ولا يحذقه ظافرًا به إلا من كان سبطًا مرتاضًا، لاكزًا ريضًا كما يقول الإمام ابن جنى - رحمه الله -.

ومن أجمل الكنايات فى باب الصيد قول محمد بن عمير التميمى لشريك النميرى وعلى يده صقر: ليس فى الجوارح أحب إلىّ من البازى. فأجابه سريك النميرى: إذا كان الذى تحبه من البزاة يصيد القطا.

فقد كنى كلا الرجلين كناية أبعدته عن الإفحاش فى القول، مع بلوغ كل منهما غاية ما تريد من مساءة الآخر، ثم خرجا من هذه المعركة الكلامية متكافئين وقد نال كلاهما من صاحبه ما أراد.

ووجه ذلك أن الشاعر جريرًا، كان قد هجا الراعى النميرى بقوله:

أنا البازى المدل على نمير ... أتيح من السماء لها انصبابا
إذا علقت مخالبه بقرن ... أصاب القلب أو هتك الحجابا
فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

فها هنا - كما ترى - هجاء مقذع، وقول فاحش، يركب بالخزى والعار كل نميرى، وقد كنى التميمى عن الفحش فى هذا الشعر بكلمته: ليس فى الجوارح أحب إلىّ من البازى.

وأما قول شريك: إذا كان الذى تحبه من البزاة يصيد القطا، فإنه قد جمع المعانى التى تسوء التميمى وتركب به أيضًا الخزى والعار الذى تسوّد منه وجوه وتضيق به صدور. ووجه ذلك أن الشاعر الطرماح، كان قد هجا تميا فقال:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... فلو سلكت سبل المكارم ضلت
أرى ليل يجلوه نهار ولا أرى ... جلال المخازى عن تميم تجلت

فها هنا أيضًا كما ترى هجاء مقذع وفحش فاحش يركب بالخزى والعار كل تميمى. وقد كنى النميرى عن الفحش فى هذا الشعر بكلمته: إذا كان الذى تحبه من البزاة يصيد القطا.

على أن من الكنايات ما يكون بغير كلام، فى شعر يروى أو قول يؤثر، وإنما يكون فعلًا ظاهره كرم محض وباطنه سم زعاف. فقد روى الرواة أن جماعة من خاصة أمير من الأمراء اجتمعوا على مائدته، زاخرة بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين. وكان على المائدة تميمى مقدور ممن اصطفاهم الأمير لمجلسه وطعامه.

وفيما كان الرجل مقبلًا على طعامه مستمتعًا به، إذا رجل يمد يده إليه بقطاة مشوية، وكأنه يكرمه بهذا الصنيع. ولكن التميمى صرخ من الغيظ قائلًا للأمير: أيهان جليسك على مائدتك؟ فسأله الأمير: عن أية إهانة تتحدث؟ قال: ذلك الرجل يمد إلى يده بهذه القطاة المشوية، والقطا المشوى منى قريب وكثير، فهو لم يرد إلا قول الشاعر:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... فلو سلكت سبل المكارم ضلت

ولم يسع القوم بعد أن فهموا معنى الكناية الخرساء إلا أن يضحكوا ملء أشداقهم، ثم أن يأكلوا بملء أفواههم، إذ كانت هذه النادرة من أحسن شىء فى مشهيات الطعام.

ومن الكنايات الرائعة - والفرس وسيلة صيد - ما رواه أبو بكر ابن دريد من أنه عُرض على معاوية بن أبى سفيان رحمه الله فرس، وكان معه عبد الله بن الحكم بن أبى العاص، فسأله معاوية: كيف ترى هذا الفرس يا أبا مطرف؟ قال: أراه أجش هزيمًا. يعرض بمعاوية فى شعر كان قد قاله فيه النجاشى الشاعر يعيره بالفرار أيام صفين وهو قوله:

ونجى ابن حرب سابح ذو علالة ... أجش هزيم والرماح دوانى

إذا قلت أطراف الرماح تنوشه ... مرته له الساقان والقدمان

وهو على ما ترى هجاء مقذع، والتعريض به لا يطيقه ذو سلطان مهما كانت قدرته على الصبر والاحتمال. ولذلك أجابه معاوية إجابه أشد لدغًا وأخلد سمة فقال له: أجل يا عبد الله ولكنه لا يطلع على الكنائن. وكان عبد الله هذا يتهم بنساء إخوته. فكان هذا التعريض أقتل للمروءة من ذاك.

ولذلك قال عبد لمعاوية: ما استوجبت منك هذا الجواب كله يا أمير المؤمنين وكأن معاوية أحس أنه قد جاوز ما عرف عنه وله من الحلم وضبط النفس فقال: يا عبد الله، كتمها على، وقد عوضتك منها عشرين ألفًا.

ومن الكنايات المعجبة ما يروى من حوار بين عبد الله بن ثعلبة المحاربي وبين عبد الملك بن يزيد الهلالي. فقد دخل عبد الله على عبد الملك وهو يومئذ وال على أرمينية فقال له: ماذا لقينا الليلة من شيوخ محارب، منعونا النوم بلغطهم وضوضائهم، يشير بذلك إلى قول الشاعر في هجائهم:

تكش بلا شيء سيوخ محارب ... وما خلتهاكانت تريش ولا تبرى
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت ... فدل عليها صوتها حية البحر

فأجابه عبد الله المحاربي قائلًا: أصلح الله الأمير، إنهم أضلوا الليلة برقعًا، يشير بذلك إلى قول الشاعر يهجو الأمير وقومه:

لكل هلالي من اللؤم برقع ... ولابن يزيد برقع وجلال

ومن أكرم كنايات هذا الباب – والبعير وسيلة صيد – سؤال وجواب بين رسول الله ﷺ وبين خوات بن جبير الأنصاري. وقد كان خوات في الجاهلية يدع جمله غير مقيد فيشرد، فيدور على البيوت يسأل عن جمله، وإنما كان يريد بذلك مجالسة النساء ومحادثتهن، وله في ذلك قصص كثيرة رواها صاحب الإصابة، وابن عبد البر في تراجم الصحابة. فكان رسول الله إذا

لقى خواتًا يداعبه - وما أكثر ما كان يداعب أصحابه - فيقول له: ما فعل جملك ياخوات؟ فيقول خوات: عقله الإسلام يا رسول الله. يعنى بذلك أن الإسلام قد منعه ما كان يأتيه فى الجاهلية. وأنه قد وقف باعتناقه الإسلام عند حدود الله. وهى على ما ترى كناية بلغت الغاية فى صدق الأداء وحسن البيان.

ورسول الله ﷺ لم يكن يواجه أحدًا بما يسوؤه، فكان كثيرًا ما يكنى. ومن أشرف كناياته «إياكم وخضراء الدمن» فالدمن جمع دمنة، وهى المزبلة ومراث الدواب، تنبت نباتًا يرف بالحياة الدافقة والخضرة المعجبة، وقد كنى صلوات الله عليه بذلك عن المرأة الحسناء فى المنبت السوء.

وكتاب الله - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - قد سلك باب الكناية فى أكثر من موضع من مثل قوله تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأُمه صديقة، كانا يأكلان الطعام﴾ فكنى جل ثناؤه بأكلهما الطعام عن إتيانهما بيوت الخلاء.

ومن أحسن ما يستدل به على أن الكناية بالمنزلة الرفيعة فى لغة القرآن ما ذكره أهل التأويل فى الآية الشريفة: ﴿وإذا مروا باللغو مرُّوا كرامًا﴾ فاللغو سقط القول، والقرآن سمى التعبير عنه كرمًا. يعنى جل ثناؤه أن عباد الرحمن الذين خلعت عليهم الآيات الشريفة من سورة الفرقان أجلَّ الأوصاف وأجملها، إذا عبروا عن معنى يستهجنون لفظه تركوا التصريح به إلى الكناية عنه، تنزهًا عن اللغو وترفعًا عن الإسفاف.

فذلك هو نهج القرآن، وذلك هو نهج النبوة، وذلك هو نهج الذين يطيب لهم أن يتخذوا قدوتهم الحسنة من الكتاب الكريم والنبى العظيم.

الخَـاتمة

أما بعد، فقد آن أن نستريح ونُريـح بعد هـذا المشوار الـطويل بـين صحائف الكتاب، راجين أن يكون ما ألمنا به فى شتى أبواب المعارف نافعًا للذين يطلبون العلم حراصًا عليه.

ولـست أزعم لنفـسى أننى فى هذا الذى كتب فى هذا الكتاب، كنت بعيد الشأو وسيع الخطو لم يسبقنى إليه سابق ولا يلحقنى فيه لاحق، فذلك زعم لا تنهض به حجة ولا يجد السبيل إليه برهان. وحسبى أننى كتبت ما أظن أن مقتصدًا لا يستغنى عنه ولا مجتهدًا يضيق به.

على أن أشرف الغايات التى تحرّيتها من جمعه وتأليفه، إنما هى تبيان أن لإسلام ليس دينًا بالمعنى الذى جرى به العرف وأُلِفه عامة الناس، ولكنه حضارة شاملة كاملة تنتظم جميع شئون الحياة وتنظر إلى الدنيا على أنها مطيّة للآخرة، فتتناول شئون الدين بروح الدنيا وشئون الدنيا بروح الدين.

والله من وراء القصد بيده الخير وله الحمد فى الأولى وفى الآخرة، وله الحمد فى كل حال، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

كتبه الفقير إلى ربه القدير أحمد حسن الباقورى. وكان الفراغ من كتابته ومراجعته وتعليق حواشيه فى يوم الخميس الخامس من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، موافقًا الخامس من يوليه

سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف من ميلاد المسيح. وذلك فى مصر الجديدة من ضواحى القاهرة حرسها الله تعالى وجعلها دائمًا معاذ العروبة وملاذ الإسلام.

أحمد حسن الباقورى

obeikandl.com

obeikandl.com

مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم

٢ – التوراة.

٣ – تفسير الفخر الرازى.

٤ – تفسير الكشاف.

٥ – تفسير القرطبى.

٦ – صحيح البخارى.

٧ – صحيح مسلم.

٨ – جامع الأصول من حديث الرسول.

٩ – لسان العرب.

١٠ – أساس البلاغة.

١١ – القاموس المحيط.

١٢ – تاج العروس.

١٣ – المعجم الوسيط.

١٤ – الخصائص، لابن جنى.

١٥ – مذكرات الشيخ السكندرى فى فقه اللغة.

١٦ – سيرة ابن هشام.

١٧ – الروض الأنف، للسهيلى.

١٨ – السيرة الحلبية.

١٩ – البداية والنهاية، لابن كثير.

obeikandl.com

٢٠ – الأغانى، لأبى الفرج الاصفهانى.
٢١ – الميسر والقداح، لابن قتيبة.
٢٢ – ديوان المعانى، لابن قتيبة.
٢٣ – ديوان على بن الجهم.
٢٤ – ديوان امرئ القيس.
٢٥ – المعلقات.
٢٦ – ديوان الحماسة، شرح التبريزى.
٢٧ – ديوان الراعى النميرى، للحانى.
٢٨ – كتاب الفرج بعد الشدة.
٢٩ – شرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد.
٣٠ – ديوان الشماخ بن ضرار.
٣١ – ديوان حسان بن ثابت، تعليق وليد عرفات.
٣٢ – مع الله فى السماء، للدكتور أحمد زكى.
٣٣ – فى سبيل موسوعة علمية، للدكتور أحمد زكى.
٣٤ – الحيوان، للجاحظ.
٣٥ – حياة الحيوان الكبرى، للدميرى.
٣٦ – صبح الأعشى، للقلقشندى.
٣٧ – العقد الفريد، لابن عبد ربه.
٣٨ – نهاية الأرب، للنويرى.
٣٩ – القوس العذراء، لمحمود شاكر.
٤٠ – البيرزة، لبياز العزيز بالله الفاطمى.
٤١ – فجر الإسلام، لأحمد أمين.
٤٢ – كتاب السلوك ، للمقريزى.

obeikandl.com

٤٣ – إغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقريزى.
٤٤ – النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى.
٤٥ – الإفادة والاعتبار، لعبد اللطيف البغدادى.
٤٦ – معجم البغوى.
٤٧ – دلائل النبوة، لأبى نعيم الأصفهانى.
٤٨ – حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للعقاد.
٤٩ – أبو الأنبياء، للعقاد.
٥٠ – ديوان المتنبى.
٥١ – الشوقيات، لأحمد شوقى.
٥٢ – الموسوعة العربية.
٥٣ – انتصار الحضارة، هنرى بريستد.
٥٤ – قصة الحضارة، ول ديورانت.
٥٥ – معالم تاريخ الإنسانية، ولز.
٥٦ – شمس العرب تسطع على الغرب، سيجريد هونكر.
٥٧ – حضارة العرب، جوستاف لوبون.

obeikandl.com